نصوص المدينة

القدس

المتوكل طه



نصوص المدينة

القدس المتوكل طه

الناشر:

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة

الماصيون ـ رام الله/ فلسطين

ص. ب: 1804

هاتف: 2952508 -2 -970+

2984491 -2 -970+

فاكس: 2984492 -2 -970+

بريد الكتروني: *sprgs@qou.edu*

تصميم وإخراج فني:

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة

فهرس المحتويات

شكر وتقدير

يتقدم الشاعر بأسمى آيات الشكر والعرفان من:

جامعة القدس المفتوحة

لإسهامها في نشر هذا الديوان

كما يتقدم الشاعر بجزيل الشكر والمحبة من المصمم:

كميل غالب زيد

على جهوده في تصميم هذا الديوان وإخراجه

المتوكل طه

نصوص المدينة

القـدس المتوكـل طه

نصوص إيليا

في المدينة جَمال سماوي يرحب بكم،

فادخلوها.. شهداء!

****

لديّ عدة أسماء، لكنَّ الأَخير

هو المُظلم منها

****

لِتَنْقُش المدينةُ على أبوابها حكمةَ الفَرس؛ مِن الدم يأتي دمٌ جديد.

****

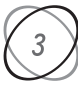
العَالَم هو نفسه في كل مكان،

إلاّ هنا، إلاّ هنا..

****

لقد كذّبوا على أرواحهم، وأنكروا مصيرهم الطبيعي، وجاؤوا للانتقام من الضحية

****



ضعفك يا أبي هو الذي قاد المدينةَ إلى الموت

****

قالوا: الآن، يمكنكَ النزول، فقد تهرّأتِ الراية، وبهتتِ الألوان..

أقول: الآن، يمكنك الصعود، فإن السارية بلا علَم!

****

رأيتهُ بأمّ عيني، لقد أمْسكَ بذيلِ العاصفة، ودفعها حتى احتشدت في الزجاجة.. إنها تبرق في يده!

****

عندما أَمُرُّ من جانبها، أغلق عينيّ

.. إنه حُلم سيئ.

****

السورُ عباءةٌ شقراء، تلفّ المدينةَ بحزام عفّتها،

وتفضي إلى بكارتها المتجددّة.

****

طفل الصنوبر الذي خاض كحلَ الماء.. انهرقَ على حجارة السوق، وتبعثرت غرّته المخفوقة

****

المرأةُ التي وضعت جنينَها الذي مات.. ونزفت،

ورأى جنودُ الحاجز عورتَها وصراخَها الوحشيَّ..
هي نفسُ المرأة، التي كسرت شاشةَ التلفاز،
عندما رأت أحدهم يُعانق الضابطَ، الذي حَدَّقَ بين فخذيها..
وتلمَّظ!

***

سلامٌ على مَنْ مسَّتْ أرواحَنا بقناديلها وزفّاتها وأقواسها الباذخة بالدوالي والأغنيات.

***

الأشباح لا تبكي!
وحدنا مَنْ يملك الدموع..

***

منديل أمّي قبل عامورة ومسّادا.. بآلاف السنين!

***

يعود الجنودُ من الحرب،
وكثيرٌ من الفولاذ في وجوههم.

***

لم يعقد هذا الرجل البسيط هدنةً مع الذين طردوا جاره،
ولم يرَ في الشارع الثاني ما يدعو إلى الطمأنينة،

لهذا دقَّ الفولاذ في صدور أولاده،
وعلّم أحفاده الفرق بين النعاس والحديد،
وراح يردّد على مسامعهم الأغاني القديمة..

***

سأرفعُ إيلياء زهرةً زجاجية،
إلى أن تُطاول النجومَ، التي تراقب الأرضَ
المُدمّاة والمُنْتَهكة.. والحالمة،
وإلى أن تصبح المدينةُ شمعتي البابلية
البيضاء.. التي سأُفكّر بها كل يومٍ،
وإلى الأبد.
ولهَم أن يواصلوا التيْه، مرةً أُخرى،
في صحراء مُطْفَأةٍ عجوز..
ويأكلوا عُشبةَ الليمبوس السامّة،
ليتخلّصوا من الصور التي تتراءى لهم في الكوابيس،
وكانوا فيها يذبحون الحَمام، دونما سبب،
ويهرسون النرجس والفرفحينة والخبيّزة
ببساطيرهم، وهم يطاردون الطائرَ
والظبي والحطّاب، ويفتحون صدرَ

النجمة، ليلتهموا قلبها المفعم
بالحب والحياة، لتجدّد أمّهُم الساحرةُ شبابَها
البشعَ الغائر..
ولن يكونوا مثل ملكة تدمر، التي أكلت
العُشبةَ، قبل أن تصل روما، لكي لا يراها
أهلُ المدينة مقيّدةً ذليلة..
لقد ماتت زنوبيا من أجل كرامتها،
ويموتون مثل الضباع السائبة والنسيان..
أو كما قضى القيصرُ مذبوحاً على الدرج.
عندها، سيرى الرعاةُ نجمةَ الميلاد
من جديد،
ويلد السلامُ في الحقول..

****

.. وأخيراً وجدوا عصا الراعي التي كانت مثقوبة ومجوّفة كأنبوب مستقيم، وكلّما هبّت الريح، صارت ناياً يجرحُ الشريان.

****

الشيخُ الذي حمل المدينةَ، لم ينتبه أنها سقطت عن ظهره، لكنه ظلّ ممسكاً بالحِبال.

****



ولم تسقط الإضمامة من يد بائع النعناع.. رغم الرصاصات العشرين

****

العَلَمُ الصغيرُ الذي رسمه الفتى على عارضة عَرَبته الخشبية كان كافياً لأَنْ ينوس كالذّبالة، وينطفئ بدمه العارم

****

معتقداتهم العمياء تمنعني من الدخول إلى

معابدهم السوداء

****

.. وأطفأ سيجارته في البرعم الصغير، وطقّ الغشاءُ واللحمُ والزغبُ.. ولم تعترف!

لقد افترعها الجمرُ، وخسروا كل شيء

****

الجرّة التي عثروا عليها في كهف الحوش.. كان فمها مغلقاً بقماشة الطين، وحينما فضّوها سال البرق على المصطبة

****

كانونُ الجَمْر والدلّةُ وبساط الصوف والمنقل والركوة ووجوه

العائلة المرصوفة، لكنّ الرعد لم يظهر في الصورة، ولم نسمع الريح، ولم يأخذنا الفَوحَان

****

وقالوا: مَنْ يُنْكِر ذَنْبَهُ، يُنْكِرُ أَلَمَ الآخرين.

****

وما فتئ يردّد تلك النبوءات؛ أن اليبوسي كان مع سيدنا إدريس– عليه السلام– في مصر، ومعه اكتشف الحروف، ونشر التوحيد، وعرف بما سيقع للمدينة. كان مسجده الأول في القدس، أما مسجده الثاني الذي ورثه أحفاده، فهو في منطقة بشارو في البرّ الغربي عند منابع النهر، وهناك أقام محبّوه نصّاً بصرياً تخليداً لإيمانه وعبادته لله الواحد الوحيد.

وأن من أحفاده مَنْ كان يراقص الريح والوعول، وهو الذي أرهص للباليه والهيب هوب والجاز والسلسا والتانغو والفالس، وكذلك للواحدة والنص والشمالية والطيارة.. والسيّارة والدّحيّة والسّحجة والثلاث والطعجة والبدّاويّة.. ولكل الدبكات ولغات الجسد،

ليكتمل الرعد!

وقال: إن المدينة سَتُهدم وتُبنى ثلاثين مرّة، وإن أقواماً بعيدين سيبنون مدائن تشبه إيلياء كأنها هي هي، ولها

اسمها وسورها وأسواقها وحاراتها ومعابدها. وإن ملكة الماء ستدفن أساورها تحت حجر غشيم في أُسّ السور. وإن الماسة الكبيرة سيلقونها ملفوفة بخيوط النمل في المرآة.

وبعد ثلاثة وثلاثين قرناً ستمتلئ البئر الكبيرة بالجثث وستبقى على حالها، كأنها ذبائح الساعة، إلى يوم الساعة. وإن المعبد الكبير سيتهاوى، ويخرقون البرتقالة بقفاف النار والكحل المُبيد.

وقال: ستكون إيلياء عروساً يوم البعث ويوم النصر، وأرضاً للمحشر والمنشر، وسيأتيها المجاور ويتلو كتاب ابن حَجَر وابن هشام والبخاري والمدائح التي تترى لسيدنا النبي ولها ولمحررها الجسور.

ثم ستعلو جدران الفرقة وأقفاص الحجارة والقصبات الخائفة، وسيمنعون الملح عن الجرح، وترتفع المقصلة كل عشرين إلى أن تتبدّل الشواهد، وينسى الطالعون وجهها، وقبل المذبحة الكبيرة ستحزّ الشفرةُ قطنَ الشال الملوّن، وستنتشر عدوى اللحاق بالضباع، وسيعجن الناس العسل مع القفير، ثم تقع صاعقة العنّاب، حتى يمخر الحصان إلى رقبته في الزبدة المخثرة. ثم تبدأ مركبة الصباح لتمحو بصمة النار عن الأسوار، ويسارعون في بناء المحراب مرّة أخرى، بعد أن يحفروا أربعين وأربعين، ويتدفق العابدون

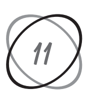
حتى لا يجد النائم مكاناً لغفوته إلاّ على بعد خمسين فرسخاً أو يزيد. ويقول: إن حريق مدينة المسرح الحجري سيشوي زهرَ النوافذ في المدينة، ويلفحها بالرعب والهروب. وسيجلو الثالثُ جدرانَها بالحنّاء، ويكون توطئة للروح حتى يُعيد الأمر الأول مرةً أُخرى.

وإن كلّ من يعبث بالمدينة سيكون عبرةً قبل البرزخ وعند البعث، فالعبوا بعيداً عنها وعن أيتامها وضحاياها لتتمّ لكم المغفرة. فالمدينة شجرة وأيقونة وآيةٌ لا تؤوّل إلاّ بالمحبة والعدل والحق.

ويقول؛ احذروا البنايةَ الشاهقة التي لا ظلّ لها، والصابونةَ التي لا تُرغي على فروة الغزال، والجُملةَ التي تساوي بين الصياد والطريدة، وتمنح سارقَ الذّرى هواءَ السلام والرسوخ. والويلُ لمَنْ شهدوا الصّلْبَ ولم يصرخوا، بل تمتّعوا بسرد الحكاية، وانصرفوا.. فسينصرفون إلى جحيم الدنيا قبل الجحيم الأخير.

ويقول: احفظوا غرفةَ القمر ومهدَ الغيمة التي هبطت وانسربت في وسائد البيوت والحاملات،

لكي لا ينزو الوحش على الزرافة. ولا تشربوا الماء المالح لأن دم القراصنة يسير في البحار. وعندما يبلغ العبدُ المرتدّ بيتَ الرخام سترتفع المدينة فوق الهاوية ويبدأ



التعب والرحيل، وستكون بكامل غربتها في أعراس الموت الموصولة، وستنمو بقع البشاعة ويغزو الرملُ رئةَ الحواري، حتى ينفجر البركان الصاخب، ويلد مَنْ تصرخ أُمُّه من آلام المخاض، وتتجندل الطيور المعدنية ونافثات الفناء واليباب، عندها سيعود الموتى إلى قبورهم، وينتظرون المشهد الرهيب.

ويقول: سيختلفون على صواع الذهب، ويعود النهر المختفي يضفضف بأسماكه الناعمة في الطرقات، وتعود اللغة والكرنفالات والإماء ورمّانة الأندلس الحاذقة، إلى أن تشيع الفتنة وتجفّ البحيرة.

عندها لن يبقى للمدينة غير معنى واحد يظهر في بابها الرحيم، وسيمشي المُصلّون تحت الصنوبر والنارنج، ويشهدون زواج البنفسج والنور.

وقال: احذروا مَنْ لم يرَ الدم في يد القاتل الذي يصافحه!

***

أقسموا! لقد رأوه تماماً؛ بثوبه الكتّان السكريّ، وشَعْره المدرّج السابل العسلي الكثيف، ولحيته الزعفرانية الخفيفة الناعمة، وعينيه وطوله ويديه

المباركتين.. لقد رأوه يمشي ثانيةً، من أوّل طريق الآلام إلى الجُلجُلة، دون تاج أو شوكٍ أو صليب.. ولكنه يمشي المسافة كل ليلة.. وهالته ًتدلّ عليه.

***

لا تزال فتحةُ الليل قادرة على إشاعة الفضّةِ في العظام، والذَهب في الشفاه.

***

عندما خرج ملكي صادق لاستقبال سيدنا إبراهيم عليه السلام، كان أمَرَ أهلَ القصر، لأَنْ يعدّوا الوليمةَ للضيف..
قالت امرأة الملك: لقد سقط نجمٌ أبيض في صحن العجين وذاب في ماء الطحين.

***

البحرُ البعيد لم يعد مأنوساً بقناديل اللهاث والعرق، والموج القريب رخو وبعيد.

***

البوابةُ التي شهدت زفّةَ الحصان، نزلتْ حجارتُها
عَنْ كتف الزمان، وتركت القَوْسَ على حاله، مُدَثّراً بلهفة المُلصقات.

***

للجحيم بوابات كثيرة، وأخطرها بوابة الهيكل الجديد

***

عندما يزول الألم يتحوّل إلى حكمة،
لكننا بلغنا الحكمةَ في ذروة الألم

***

القمر هدية لذوي القلوب المتباعدة، ينظرون إليه من مناطقهم المتفرقة، في لحظة واحدة فيكونون معاً. لهذا، رفعت السماءُ المدينةَ، وطبعت صورتها على القمر، حتى تجتمع حولها القلوب.

***

كل ما يمكن أن يتمّ فعله.. سيكون، ولو بعد حين
لهذا؛ نَصْرُنا في يدنا

***

يسأل جيرانه إن كانوا يسمعون ذلك الإيقاع الرتيب الذي يصل إليه من قاع بيته؟ لكن أحداً من جيرانه الممتدّين في البلدة القديمة، لم يشفِ قلبَه بالقول: نعم، ثمة دبيبٌ بعيد يأتي كأنه صدى الصدى!

راح يحفر بصمت وهدوء، تحت أرض غرفة نومه الصغيرة، فيحمل مقدار قفّة من التراب، يحملها في كيس بلاستيكي،

ويسير بها خارج الأسوار، ويلقيها هنا أو هناك.

بعد أسابيع، اصطدم بأرضيّة مرصوفة بإحكام، كأنها مصطبة من حجارة، تمّ تبليطها لتكون قعدة مالسة لمجلس الساكنين.

تجرّأ ورفع بضعة منها، فكان تراباً مُلبّداً، فذهب يحفر ويحفر حتى فختت الأرضية، وظهر تحتها غرفة واسعة، تحتل مساحة البيت الذي يقطنه تقريباً، فهبط على سُلّم خشبي، فرأى العجب العجاب؛ أكثر من عشرة تماثيل لموسيقيين يحملون آلات عزف، يقفون استعداداً لتأديه وَصْلة من النغم المُتّسق الرقراق.

***

.. ولّما رآها ابنُ الملك، وكان متنكّراً بثياب العامة، في السوق، وهي تحمل على رأسها طبق الفاكهة، ويهتف صدرها بوروده المطرّزة.. تبعها حتى عرف أهلها.

في اليوم الثاني كان الملك وحاشيته يطرقون باب البيت، وبعد أسابيع قليلة، كانت المعازف والطرقات تشهد زفاف الأمير على الصبيّة القمحيّة، التي ولدت له ذلك الفتى الأصهب، الذي صار ملك المدائن، من الرمل إلى الثلج، ومن المعدن الرائق، إلى ثوب الموج والبرتقال.



يا رجالَ المدينة! يا قامات الشجر النعناع وبلّوط الوديان! ويا طلّة العيد والأنفاس الدافئة! يا كفّ العشق الموقظة حليبَ العذارى وزبيب الشغف! يا حلم النساء المتأوّهات المتكتّمات، وأنتم تبرقون في الطرقات وتحت ظلال القرنفل وعرائش الماس! يا مَنْ تأخذوننا تحت لفحات الصخر الناعم، فيفيض الماء على الماء! يا اختناق اللوزة في قشرتها الحرير! ويا يقظة الموت الرائعة، ونوْمة الهلع الأخّاذ النافذ! يا فتيانَ التوتِ الناضج على الشفاه، ولبَن التينِ السائح على زغب الربيع! يا أمانينا التي ننجلي لقدومها، فنصعد إلى غلالات السحر واللحظة الفارقة! يا كلَ هؤلاء الذين يجمعوننا كحفنة الذهب السائل على الوسائد، قولوا له إنني عطشى حتى الذبول، وإنني أنتظر حبيبي اليبوسيّ، برائحة التفاح في فمه، والبخور في سواحله، واللذعة حيث الثلج والنار!

يا كلَ أولئك! نادوا بالصوت واليد والعين وبكل الأشياء، حتى يدفئني ويمزّق مواسمي الفارعة، لينبت الحنّاءُ من الرضاب الذي يقضم الفراغ! قولوا له يا كل رجالي، إنه رَجُلي الذي سيكون ولدي وأبي وعمّي وخالي وأخي وحبيبي..

قولوا له إنني أحبّه، حتى لم يعد لدي غير أني أحبّه.. وأكاد

أن أكرهه حتى يجيء..

***

جلبوه من السجن، كان شَعره أشعث طويلاً، ولحيته مفرودة تغطّي وجهه وصدره وثيابه البالية المتّسخة، عيناه حمراوان وجُرْمه ينتفض واقفاً كأنه تمثال ممسوس، يهتزّ أمام السيف والنطع.

أحكموا القيد على يديه خلف ظهره، وخلعوا عنه قميصه تمزيقاً، ففاض عرقه دماً.. ونزّ حتى غطّى بنطاله الفضفاض.

حاولوا أن يثنوه ليركع ويضع رأسه على الجذع الخشبي الموضوع، لكنه رفض!

كان طويلاً طويلاً.. ولن يجدوا أحداً يجزّ رأسه واقفاً.. فراحوا ينغزون خواصره بمقدمة السيف، لكنه ظلّ واقفاً.. وازداد الدم تدفّقاً!

حاولوا معه مرّة واثنتين وخمسين ومئة.. والدم ينزف من نصفه الأعلى.. حتى خرّ دائخاً زائغاً..

ولّما حملوه، كان الجلّنار يفيض حيث يسيرون به، حتى غطّى الطرقات.. وتعالى حتى غطّى الشوارع.. وارتفع حتى غطّى البيوت، وتسامق حتى فاض عن الأسوار.. وما زال يتصاعد كالنبع الهائل في الأنحاء.

***

اصرخوا إذا شهدتم قتل النبيّ الشاب، وإلاّ ستصرخون أَلَماً من فضول ما سترونه من مُتعة العذاب.

واصرخوا إذا مرّوا ببساطيرهم الثقيلة في الطرقات، فكل شبر صلّى عليه نبيّ أو سجد فوقه ملك مُقرّب.

واصرخوا إذا منعت الجدرانُ الشمسَ من الدخول، فالمدينة أمها التي أرضعتها فضّة الحياة.

واصرخوا في وجه سيّدها، الذي يدّعى أنه سيّدها، فقد رآه الليلُ ينسلّ من بيت القاتل متأبطاً ذراعه الباطشة.

واصرخوا في وجه كل خطيب يرطن بالسلام، فثمة مذبحة بعد الكلمات

***

صبّ عصير الرمّان عند ملتقى الشارعين، ودلح العسل بطيئاً بين القبّتين، ورشّ السُّكّر الناعم في زوايا الدروب، والزبيبَ في المنحنيات الذاهبة إلى الأزقة والبيوت.. كانت المدينة مستسلمة، فقد خلعت كل أشجارها وظلالها، وتمددت أمامه شمعة كونية تسيل نوراً وردياً مُشرّباً بلبن الغروب..

هيّأت روحها لغطاء السخونة، ليحفّ الدنيا بالاحتكاك العذب الجامع الصاخب الوفير.. لكنّ أحداً لم يكن هناك، كانت وحدها تحلم بالصوت، لكن الرجل غاب أو تلاشى، أو لم يكن أصلاً في المدينة!



لم يحلموا بالزنابق البيضاء! كانت أياديهم تشرّ بدم الملاجيء والصغار، وببقايا لعبة احترقت، فَوصَل قطرانها إلى ثيابهم الداكنة.. إنهم يشربون دماً ويأكلون دماً ويُخْرِجون دماً، ويحلمون بالدم والكوابيس، ويؤوّلونها بالدم والحروب، ويرسمون غدهم بدم الطيور والرُّضّع، ويبنون بيوتهم بعظام الموتى والشجر المخلوع، وعندما يحتفلون: يمتلىء الخوان بعبّوات الدم، وصحون العيون الصغيرة المُطفأة، والشفاه الطفلة المقصوصة، والأصابع الناعمة المقطّعة، ويقهقهون فتتبقّع أفواههم بفقاعات الدم المتناثر، وتبدو أنيابهم كقرون الفلفل الصيفي الحريف، تقطر سائلاً له شَوْخة أنفاس الموتى، وزنخ الجثث التي أكلوا أكتافها وظهورها.. إنهم يحلمون بدم جديد يعبِّئونه في زجاجات، يرصفونها على الرفوف، ليشربها أبناؤهم قبل أن يركبوا الحافلات إلى المدرسة.

***

لعينيكِ أُقشّر تفاحةَ الكلام حمراء كدم الشهداء طازجاً نقيّاً كقلبك النبيّ.

***

لم يرَ أباه إلاّ عائداً من معركة، أو ذاهباً الى معركة! أياماً، يبدّل فيها ثيابه العسكرية، ويداعبه ويذهب معه إلى السوق

البلّوري، ويأخذه بسيارته الصغيرة.. ثم يروح بلباسه العسكري وبندقيته وأشيائه الثقيلة من حيث أتى.... وأخيراً أخبروا الصغير بأن أباه مات في المعركة الضارية الأخيرة، فذهب مع أمّه إلى المقبرة، وتابع طقوس دفن الجندي «الشجاع»!

بعد أيام رأى في التلفاز طفلة فلسطينية تصرخ وتولول، حول أبيـها الممدّد المقتول! فسأل أمّه: كيف مات ذاك الرجل ولم يكن يلبس بزّة عسكرية؟

ثم إنه كان مع ابنته، ولم يكن في المعركة؟

كما أنه لا يحمل سلاحاً؟ ولم يكن في المشهد ما يدللّ على أنه كان يحارب أو يُقاتل؟

وهناك بيت مهدوم، يبدو أنه بيت ذلك الرجل المقتول؟ إذاً، كيف تقولين إن أبي مات في معركة وكان هناك جنود يحاربونه بالأسلحة والرشّاشات والموت؟ أطفات أمّه التلفاز، وراحت تشرح له الأمر، لكن الصغير، لم يسمع ما كانت تقوله أُمّه، وقبل أن تنهي كلامها سألها: لماذا ذهب أبي الى هناك، ما شأنه بهم؟

بعد عشر سنين وأكثر أخذوه إلى الجنديّة، ليخدم في الجيش ويتدرّب على السلاح، ليحمي «الدولة».. لكنه مات، وأفاد طبيب الوحدة العسكرية أنه انتحر! هذا ما قالته أُمّه للصحافة بعد دفنه!

وهذه ترجمة، بتصرّف قليل!

***

لم يعهد المصلّون ذلكَ الرجل يشاركهم صلاة الفجر، قبل هذا اليوم!

لكنه كان يبادر المسجد قبلهم، ويطيل الركوع والسجود قبل إقامة صلاة الصُبح، ثم يطيل الدعاء والرجاء!

يبدو خابتاً متوسّلاً لربّه، مؤمناً مخلصاً له العبادة، كأنه أحد أولياء الله الصالحين، الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يقدّ الليل قياماً وتهجُّداً حتى هزيعه الأَخير.

توجّه إليه الإمام، وربت على كتفه ليؤنسه ويشجعّه على مواصلة الحضور، وسأله عن اسمه، لأنه من السُّنة أن يتعارف المؤمنون!

فوجيء الإمامُ أن الرجل لم يذكر اسمه، بل راح يحدّثه عن الرؤية التي تقضّ مضجعة، كلّما غَفَت عيناه!

خاف إمامُ الجامع من رؤيا الرجل، فثمة غير تفسيرٍ لها، لكن كل التفاسير لا تحمد عقباها!

لاحظ الرجلُ ملامحَ الاضطراب والانقباض على وجه الإمام، وسأله عن معنى ما يرى في المنام!

سكت الإمامُ، وقام متباطئاً، وتمتم قائلاً: لكنك في القدس يا



ولدي، ولست في بغداد!!

****

أيتها الحسناء! عندما يذكرونك.. أبتسم

****

رغم بُعْدها، تشعر أنها لَك! وهذا أروع ما في المدينة..

****

بالفعل؛ وُلدِ والشيطان في داخله..

****

يا آلهةَ الحبّ الكونية، يا رَبَّة المدائن البيضاء، يا قدسُ،
يا بريئة! إن براءتك قوّة، وإن القوّة التي تكمن في البراءة،
تنطلق، الآن، كالعاصفة، لتبدّد الوحش الذي طرأ عليك،
وسكن أحشاءك، بعد أن شقّ بطنك بالبلطة الوثنية..
وبالبراءة سيُلاقي العزازيل، ويتقلّب هناك في الهلاك الأبدي!

****

ما الذي بقي فيهم ليحبّوا السلام؟

****

سنشيد التماثيل على شرف الشهداء،
وستبقى القدس! ولكن بوجوه الخالدين

****

أنوثة الأزهار على الشُرفات،
تجعلها حمراء، خجلاً من ذكورة البلابل

***

ربما تكون القدس بلاد مَنْ يسكنها،
لكنها مدينتي..

***

لم يكن أي ثلم في النّصل،
وكان لحم المدينة طرياً كالزبدةِ،
لكن قلبَها صخرةٌ مقبّبة بالذهب

***

الذكرى كالسكين.. تذبح!
ولنا ألف ذكرى كل يوم:
الاحتلال، الحريق، المجزرة، الجدار، الإعتقال، القصف، الإستيطان، المصادرة، الحفر، الهدم، القلع، الحصار، الحواجز، الطرد، الذبح،
إلـ.. إلـ.. إلـ... الخ.. الخ

***

أراهم في أحلامي..
لا أعرفهم..



أرى وجوههم التي تحاول أن تقول..

أفواههم المُدمّاة تمنعهم من التفوّه بأسمائهم...

يغرغرون.. ويتوارون..

غامضون.. واضحون..

يظهرون.. ويختفون..

ويطلعون في الحُلم.. يصرخون

أو كأنهم يصرخون..

***

وتعود الأغنية:

كل صلواتي تبدأ بأُسمك،

وتنتهي به..

***

ذلك الفتى اليبوسيّ الذي فكَّ ضفائرَه تحت

لحم الشمس، ونشرها بين أظلاف الرّعد..

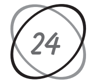
كان مبلّلاً بالأرجوان الساخن، فرقصت النساءُ

حوله بمناديل الفضّة.. وغابت السلّوى،

فثمة فتىً آخر يفكّ جدائله المائية في محرابَ النار

***

هنا اللُّجةُ! فلترفعُ المَلكةُ الثوبَ المُرتبكَ



عن الضوئين، وليَقُل العاشقُ أناشيده
في المرمر، وليناديَ على بنات إيلياء،
وليفضحُه القلب..

***

عندما باغتوه، وجدوه يحمل علبة الدّهان والفرشاة،
وكان قد كتب على الحائط بخط كبير: فلسطين عربية!
فاعتقلوه..
ومع نهاية التحقيق معه، طلب منه الضابط أن يوقّع على إفادته، لكن الفتى قال: أنا أُمّيّ لا أعرف القراءة والكتابة!
ضحك الضابط وقال له: لكنّا ضبطناك وأنت تكتب!
ردّ الفتى: أنا لا أعرف أن أقرأ أو أكتب إلاّ جملة واحدة، هي: فلسطين عربية..

***

كانت كفّه المبتوره تذكّره بتلك القنبلة التي انفجرت بين يديه وهو يعدّها..
وكان كلّما مرّ بالحاجز، وجّه إليه الجنود الإهانات، إمعاناً في قهره وإذلاله على نيّته زرع قنبلة بينهم..
وقبل أيام، أوقفه الجندي المناوب، وراح يشتمه ويصفعه ويقذع ويسبّ ويبصق على وجهه، فما كان من الرجل إلاّ ورفع ذراعه.. وصفع الجندي بكفّ يده التي أحسّ أنها

بزغت من جديد.

****

الغنيمة للمنتصر، والضحايا أحمال المهزوم الثقيلة

****

القلب المقهور.. يتحدث بقسوة

****

سأكتب لكِ الليلةِ،

وفي كل ليلة.. ما دُمتِ هنا..

****

المدينةُ التي ركبت السُّفنَ، ومخَرت عباب الحوض الكبير، نقلت إلى إنسان المغارة الشّره البدائي، ما جعله أنيقاً يركب القمر! لكنه، وبعد أن قضى على الهنديّ الأحمر، وأقام محاكم التفتيش، وألقى بالقنبلة على هوروشيما، واحتضن النازي والفاشي، وأمضى عُمره في معارك مئات الأعوام والحملات المحمومة والمجازر المهووسة بالرّهبان، الذين يبيعون الجنّة للبؤساء وذوي الحدبات والفقراء.. هذه المدينة التي حصدتها سواطيرُ أولئك الأنيقين الوثنيين، ما زالت طريدة مُغرية لهم ولسلالات أفاعيهم.. بعد أن قتلوها أباً وأُمّاً، وأشاعوا أنهم هم الذين اجترحوا معجزة الحضارة ومركبات

التقدّم والأناقة الفارهة!

لقد قتلوا الأب والأم والإبن.. وما زالوا يبحثون عن الأجنّة في الأرحام.

***

يا عشتار التي صارت بلاكا السوداء، أو أثينا الحكمة! يا أهل النور الذين فردوا عباءاتهم للقبائل آكلة لحوم البشر، من قدموس إلى قرطاج وإلى أميرة صور التي خطفها الثور!

يا بابل التي صوّحت المقتول بخمرة النصر، وكانت آيةً تسبق الزمان!

إنهم يردمون الأندلس، ويقيمون مكانها قبراً مُنْكَراً للبدوي الذي علّمهم الحياة!

***

كان يصعد على السُّلم الحجري الضيق، يحمل صحن الكرسنّة للحمام الصغير في البرج، ويجعل كفه معيناً تحمل الماء لمناقير الهديل على السطوح المقببّة!

مَنْ يطعم الحَمام بعد موتك الصغير، بثلاث عشرة رصاصة دوّت أمام المدرسة؟ مَنْ يطعم الحَمام؟ مَنْ يُطعم الحَمامَ؟

***

بعد أن كَمن لهم، وأفرغ الباغةَ في صدورهم، لحق به ما



تبقّى من جنود، ولم يجد سوى الفُرن ليختبيء به، لكنهم تابعوه، فلم يجد بُدّاً من الولوج إلى بيت النار، حيث المصطبة الملتهبة التي تجعل العجين أرغفةً ناضجة مرصّعة بدوائرها البنيّة المنتفخة سخونة ونُضْجاً..

اعتقد الجنود بأن جسده سيذوب في النار، وسيسيل لحمه ليزداد الجمر توهّجاً بزيت أعضائه.. وخرجوا! بعد قليل، خرج من بوابة النار الصغيرة، ونفض الرمادَ عن ثيابه.. ومضى

***

طرقوا بابه في الليل، كانوا ملثّمين، يخبئون بنادقهم تحت ثيابهم الشتوية.

فتح الباب ودعاهم للدخول، بعد أن اطمأنّ على أن احداً لا يتبعهم في ذلك الصمت الثقيل!

كانوا جائعين مُتعبين، وكان فقيراً لا يملك ما يكفي من الطعام والفِراش..

لكنه بَسْمل، وذكر الله.. وراح يمرّر يده على صينية الطعام المتواضعة، ووضعها أمامهم حتى شبعوا، وبقيت تفيض بما فيها من طعام.

ثم مدّ يديه إلى حامل الفراش، وأخرج فَرْشة ولحافاً، وكان يتمتم، ثم فَرشةً ولَحافاً.. إلى أن وفّر لكل منهم ما

يكفي لنومه.

وبقي حَامِلُ الفِراش على حاله.. غير منقوص!

***

اقتحموا بيته فجأة، وانتشروا في الغُرف والردهات والمطبخ والحمامات.. فلم يجدوا أحداً!

سأل الضابطُ صاحبَ البيت: أين هُم؟

.. ولا أحد!

خرج الجنود، لكنّ الضابط انتبه إلى تلك الصورة المعلّقة على حائط الغرفة، فهجم عليها وانتزعها من مكانها، وصرخ! صورة مَنْ هذه؟

لكن صاحب البيت لم يُجب..

صرخ الضابط ثانية: هذه صورة عبد القادر الحسيني! لا.. لا.. انها صورة القسّام!

واعتقلوا الرجل مع الصورة، وأخذوهما إلى السجن.

في اليوم التالي أحضر الضابطُ صاحبَ البيتَ والصورةَ إلى المحكمة، ووضعها أمام القاضي العسكري!

وعندما بدأ الضابط بمرافعته لإدانة الرجل الذي يعلّق تلك الصوّرَ على الجدران.. راح القاضي يتملّى الصورة ويحملق فيها.. فلم ير غير صورة حصان يصهل على تلّة مُضاءة!



عندما أخرجوا المعتقلين الثلاثة من زنازين سجن المسكوبية، غرب المدينة، تقدّم جنديان وراحا يضعان عصبة القماش على عيون المعتقلين، بعد أن قيّدوهم بالكلبشات خلف ظهورهم!

قال معتقل لجنديّ: لماذا تعصب عيني زميلي هذا! إنه ضرير وأنتَ تعلم ذلك؟

قال الجندي: حتى لا يرى..

لكن زميلي الأعمى هو الذي أرشدنا، عندما قادونا إلى «البوسطة» سيارة نقل المعتقلين المصفّحة المعتمة، وهو الذي أخذ بخطواتنا عندما نزلنا إلى «المعبار» غرفة الانتظار، للانتقال، لاحقاً، إلى سجن جديد.

***

كيف هويت من السماء

وأنتَ فوق النجوم؟

لَيتَعَظَّم اسمك يا راكبَ السحاب،

ويا مانح الأرض حِنَّاءَها!

اهبطْ وَقِفْ في الأعالي!

واحضن شقيقتك المذبوحة،

الساكبة نُواحَها على المرتفعات،

وتسحّ على أخيها الذبيح..

إهْبِطْ.. وَتَغنّى بخلوده النضير

ليسترجع روحَه من التراب،

ويطفىء نورَ حياة أعدائه،

ويُطلق أهلّتَه اللامعات..

إهبط.. لكي يعود من جديد،

فقد رأيتك تخرج من نقوش أوغاريت،

وتطير في الأعالي..

فتبعتك، لكى تَرى ما يُرى:

الجراد في الغيم،

والقراصنة في البحر،

وعلى الأرض الدماء.

كَثُرت الأنواءُ في الجبال،

وغاب صوتُ العصفور العذب،

ومزّعوا كساءَ الحقول،

وانقطع الندى.. ولا أمطار على الأرض،

بل حرقها اليباس المعدنيّ والبارود!

ولم يعد السرج الذهبي في البراري،

التي كانت خضراء كالكحل والمحيط.

تشققت أكبادُ الخيول،

وتكسّرت أجنحة النسور،
وولّت البواشق هاربةً في البعيد.
وحزّ الرجالُ لحومهم يندبون البطل،
ويسكبون الدمعَ على ابن الإلهة عَنَاة.
يا بعل! اسكب السلام في كبد الأرض
ارمِ السلاح،
واجعله محراثاً.. بعد أن ينقشعوا عن حدودنا،
فالحرب تخالف مشيئة إيلياء المتحضّرة.
وَأَكْثر من الصلوات والعمل لكي تمطر السماء،
وتغسل ما تبقى من دم وسمّ على الصخور والتراب،
بعد أن اصطدموا كالثيران الوحشية،
وتناهشوا كالأفاعي،
وترافسوا كالجياد الهاجمة.
واجعل كفوفَ المحاربين مثل تلال القمح،
واغسل أقدامَ أهلك التي غطست بدم الحرّاس،
والنجيعَ الذي تجمّد على أردية العرائس.
وَقُل لهم: لا تشمخوا! لأنني بقوة الحق،
سأصبغ شيبْكم بحُمْرة الدماء.

وقُلْ لهم: في السّلم أعطيكم غزارة الأمطار،
وأرسل أصواتكم في السحاب،
فتأمنواعلى قوافلكم الراجعة،
إلى كهوفكم المهجورة.
ومهما أَطَلْتُم الجلوس على عرش الزيتون،
فإن أقدامكم لن تبلغ الوطأة
ولن يبلغ رأسكم التاج يوماً،
بل سيشطركم السيفُ،
وتذرّون بالغرابل،
وتحرقكم النار،
وتطحنون بين الرّحى،
وتنثركم الريحُ الصرصر في العتمات.
ولن يصدّق أحدٌ من الغرباء،
أن للثور صوتَ الغزال،
وللعقاب تغريدَ الحساسين.
وقُلْ لهم: أيها الأشباحُ! اذهبوا من هنا،
أو امسكوا مقبضَ المحراث،
أو يدَ المنجل،
أو شبّابةَ القطعان،

واتركوا لغةَ الموت والدخان،
مرّةً.. وإلى الأبد!
وإنْ عدتم.. عُدنا

***

الأفعى تحدّق في عينيّ الفريسة، فتعطّل حواسها، وتستسلم، لكنها أكبر من فم الأفعى!

***

لقد تسللت الأرانب من تحت السياج،
وأبقت الذئبَ مع الحَمَل،
وكانت تدّعي أنها سِباع الأرض،
وخيّالة الدنيا..

***

لون المأتم الذي يطبع المدينة، صار داكناً إلى حدّ العتمة، والمعدن الذي لا يصدأ أمسى على الشبابيك عِصيّاً تتساقط طحيناً من أكسيد عفن، والسرو الذي طرّز ممرات المدينة أضحى نحيلاً ناشفاً.. لكن الطائر ما فتىء يراها جنّة غنّاء، يشغفه لونها ونوافذها وشجرها الساحر الحرير.

***

كمنجةٌ تنزف في صدري، أرفع دَمها الوهّاجَ إلى شُبّاك العبير،

كأنني مُعَلَّقٌ بتلك الوارفة التي استلبتني، ولم أعد قادراً على مغادرة دائرة الدوّامة العالية!

كان الخَفَرُ يمنعها من التجاوب الصريح، ولم تومىء بغير إشراقة الخجل، والإيحاء برضى الإقتراب.. بعيداً!

وَأَلْحَفْتُ بالطلب، وَدَقَقْتُ البابَ المُقَدَّسَ النابضَ بكل الباقات والإيقاع، ومكثتُ شهوراً أُقَدّمُ أجفاني المُؤَرَّقَةَ على مقعدها المزنّر بالَحذَر والاحتشام، وضاعفتُ إصدارَ الكلام المؤَمّلِ والعشقِ الخالص.. إلى أنْ شَقَّت الباب قليلاً، فدلَفْتُ إلى بستانِها، بانتظار الصعود إلى فردوس الغزال.

ها أنذا أُلَوّن ألواحَ الرّخام، وأدخل مسامات القرنفل والريحان، وأَحفّ الكهرمانَ بشغف يتوالد كالنبع، في كل سفر ورجوع.

أنا العاشقُ المُصاب بامرأة المدينةِ، التي يحلو لي أن أراها مدينتي الفاضلة.. التي لا تشبهها مدينةٌ كاملةٌ في الدنيا.

***

صلاة المغرب وركعتان؛ ليبارك اللهُ الزواجَ، ثم يزفّونه من باب الحَرم إلى الصَّمْدةِ الرّانخة. واليوم.. اعتقال مباغت، قبل الصلاة والزفّة والعروس.



حبّ المدينة الذي يحركني،
وليس كراهية أعدائها.

***

عندما أحضروا الجرّافة لتخلع الزيتونة عن عرشها الأبديّ.. اكتشفوا أن شيخاً في باطن الأرض، يقف ويمسك شروشها بكلتا يديه.

***

السبيل الثرّ الدافق بلعاب القمر، توقّف عن لعبة الأفعى، وامتهن البكاء.

***

اليدُ التي حملت ملعقةَ الدم، وسكبتها في فم الرضيع، عربشت عليها اللبلابة.. فَطَرحت زهوراً سوداء.

***

الُقبّة ثدي الأرض، والهلالُ حَلَمتُه التي تُرضع صغارَ النجوم.

***

وفي شهور الخطبة، كنتُ أستأذن حماي، لأذهب مع خطيبتي الى الحَرم! كان يعرف أن الذهاب إلى هناك عصمة ومناعة من أيّ شرّ أو شطط، وكنّا بعد العشاء نتمشّى إلى الفرن،

فنجلس على سور واطئ أو حجرين مقعدين في الطريق، ونفرد الكعك والفلافل والزعتر، ونسير متباطئين إلى الدار!

كانت تلتصق بي كأنها خائفة! ثم تهدأ لدى مرورنا بساحة المراجيح، فتتذكر أيام "اليويا" ورمضان وليلة القدر والعيد! ثم تخاف فتلتصق ثانية، وتقول: من هنا خرجت "العمورة"! والعمورة هي الغولة بلغة أهل البلدة القديمة! فأشكر في سرّي عمورة القدس التي أتاحت لي فرصة الاقتراب! إنني أموت شوقاً إلى تلك الطريق.. وإلى تلك الرائحة وإلى تلك الليالي!

وإلى من يرى العمورة.. فليشكرها عنّي!

(من كتابنا: كشكول الذهب)

***

لم نَنَم تلك الليالي، وكنا إنْ فجّ الصباح ننهض إلى الثياب الجديدة، ونضع أحذيتنا الصغيرة اللامعة، ونأخذ العيديّة.. ونقبّل أيديهم الكبيرة.. وننطلق إلى ساحة "توما توما" حيث نشتري هواءَ المراجيح، ونطير إلى أعلى السور..

لماذا أبكي الآن؟

***

في الطريق إلى الغيم، كانت المروج الجبلية

تنبئ بدم في الوردة أعظم من دمنا.

***

عندما جلسَتْ كالبركان الصغير، تأكد له أن النصر هو شيءٌ موجود في الاستسلام.

***

البلاد التي كانت تمور بهمس التأملات وبمجد الطبيعة.. غاب حَرَسُها! لهذا، كان عرشُها فارغاً، فاستسهلوا الجلوس عليه.

***

أسيرُ الآن في خيال الطريق، والآن ليلٌ نهاريّ يغطّي الممرات الفارغة إلاّ من وَقْع أقدامي، كأني أسير، من جديد، وأدخل "باب الأسباط" وأمشي، وأمشي، ثم أدلف من "باب حُطّة" فالحارة. وأسير، هكذا، كأنني نائم أو ممغنط باتجاه "باب الساهرة"، وفجأة تخرج لي العمورة بشَعرها الهائل المنفوش وعينيها المليئتين بالدم وأظفارها المدببة وخوارها الذي ينزع القلب، تتهارش مع الجدران، فَيَهرّ الجير من الحجارة شريطاً أبيض، ثم تقفز العمورة وتعترضني فأقفُ متوجساً مُستنفراً.

وأفتح عينيّ فأرى الجنود يشهرون أسلحتهم، ويحيطون بي، ومواسير البنادق قد لامست بطني وظهري ورأسي وخاصرتي، يفتشونني، ويتفحصون أوراقي، ويرمونني أرضاً،

ويقيدونني، ويأخذونني مخفوراً على أرض الدبابة إلى السجن!

دخل القدس دون تصريح!

سجن ثلاث سنوات!

***

عندما ظهرت الأنياب، هربوا كلهم! كان الطقس مظلماً، وأساور الثعبان تدمدم في سواعد الشَّبَح الخائف.. ولم يجدوا القوة في أنفسهم، إلاّ عندما تذكّروا الآية المجيدة!

***

كنتُ لا أعرف المدينة، لكنها محمولة على تلك الحكايات والمشاهد والشِّعر الجليل.. ولم تسر الأمور في مواسمها، لأحظى بأثمارها الناضجة، لكنني أحببتُ مَنْ لا أعرف، وأحببت مَنْ عرفت.

***

"إذا أردتم.. فتلكَ ليست اُسطورة"

هذا ما قاله الذئب ذو العثنون الشائب،

وكان ينبغي أن يقولها شيخُنا!

***

"أوسلو" أعطتهم المدينةَ،

وأعطتنا الحسرة.

***

كأن الجَمَلون الواصل بين البيتين، ويحمل شرفةَ المنثور، هو حاجب المرأة المجدليّة، أو أن المجدليات زججنها كما رأين الجملون، ورسمن الإثمد طريقاً إلى النبع.

***

ما الذي يتلألأ على السطوح؟
إنّهُ القمر العاشق الذي ذاب على القرميد!

***

لم يضمر الصوفيّ في نفسه أن يُحرّك الحائطَ أو السرير، أو يصعد الكرسيٌّ مع روحه إلى الكائن الأسمى، كان يعتقد أن صلاة الزّن والمجاهدات والتعزيم والمناجاة والتوسّلات، في غمرة شروده ونداءاته للأعالي الباهرة، ستفكك قفصَ الجسد، وتحرّر الغلالة لتحظى بالنيرفانا! غير أن البيت، قد تراءى له بين الغيوم، قبل أن يبلغ الكشف، ويصعقه الهلع!

***

المدينة بنفسجة كبيرة، تصعد إلى الضوء، كلما اصطهدت جهنم خلفها.
وتردّ أشجارها عن الهاويةِ، لتظلّ نافذةً وباباً، وتحترق فيها الكؤوس المتعرّقة بالغروب.

***

كنت في غرفتي، عندما جاءت لتزورني في الفندق. بحَثَتْ عني قليلاً.. وانشغلتْ برجُلٍ في البهو.

لقد كان صمتي حريةً للعبث!

***

النسر العجوز الذي فاجأنا، ما زال في كلماته توهّجُ القتال، وشغف الملكات.

***

.. وكانت وردة حريرية باسقة نديّة، كأنها شمعة الملائكة المتحلّقين حول الضوء!

رائحتها نافذة عميقة قوية واسعة، تنشر ريحاً كأنه المسك أو الصندل أو الندّ أو البخور.. لا أدري، لكنني امتلأت بها، وكدتُ أطير، لولا أنني استيقظت!

.. وربما قد تراءى لي أنها تقطر دهناً زجاجياً ينحو إلى الحليب، فَرَكْتُه بيدي، فتفتحت مساماتها!

.. ومنذ ذلك اليوم، والنار بين أصابعي.

***

بسبب خدعة من الزمن، بقيت بيوت المدينة أغنية من زيت وزعتر.

***



أيها السامع المرتبك! لا تكتم أنفاس الأوتار، واسْمَع الحجر كما ينبغي.

***

تسلقتُ الهاوية، وصعدت إلى فمها المخيف، فطالعتني شظايا صورتي على المرآة المهشّمة، وسحبتُ ظلالي، وخرجتُ من كوّة القضبان، فرأيت الشبح الكوني في الخارج!

كانت قدمه تحطّ على القطب الشمالي والأخرى على الجنوبي، ويبدو منحنياً، حيث تظلّل مؤخّرتُه ما بين القارّات، ويمد ذراعيه، فتصل أظفاره قيعان المحيطات المعتمة أو باطن البلدان، وتكاد الأرضُ تنوء به، فترتبك تحت خطواته وتضطرب!

لا شك في أن وطأته تهرس الغابات والجبال، وتسوّيها لتأخذ شكل باطن قدمه، وأن أصابعه تهدّ وجه البسيطة فتثلّمها وتعيد تشكيلها، بعد أن تقيم وتهدم وتحفّر وتسوّي، أمّا إذا وقعت ساقه في بحر أو محيط فإنها تخوض في ماء يندفع ليغرق الدنيا وينعفها خراباً متطايراً.

.. كل الأرض مبذولة أمام الشبح يفترعها ويعيد هندستها ويزلزل رسوخها ويبعثرها، إلاّ هذه المدينة التي تبدو جمرة ريانة، يراها.. وينأى عنها.

***

هل رأيتَها في الضباب؟ كانت تتلفَّعُ بقميص الغبش، وتختفي وراء رغوة الحليب، وتهبط في الحلم.

****

النافورة التي تعطي الأطفال شَعر البنات، أصبحت عارية، وبلا رذاذ رهيف، وراح الجنود يقتعدون حجارتها، فتشققت وتفلّعت وتناقلوها إلى المكبّ.. وهناك جمعت أمْرَها واصطفت ثانية، وأطلقت جدائلها من جديد.

****

تخنس في حضنه، ويمسّدها، فتغلي وترتعش وتغفو، فتشهق المدينة وترتعد، وتندّ دمعة القشعريرة.. وتبرد الحيطان.

****

منذ أربعين لم يظهر قوس قزح في سماء المدينة!
هذا خيط الدخان والدم والكراهية.

****

الحقيقة واضحة للذين يرون!
وعيون المصالح بيضاء.

****



قالوا: الذين يساعدون الشيطان
يجب أن يتطهّروا بالنار التي وُلدوا منها.

***

نقطة الدم التي سقطت من فمها، ووقعت على الطاولة، تفشّت وسالت في الشقوق الصغيرة، وانسربت في شعيرات الفراغ.. وصارت الطاولة تهطل بالنعمان وتغطي الأَرض.

***

لقد حطّت الجوارح على سفوح وادي جهنم والربابة ووادي الواد، واتخذت هيئة الانقضاض.. ولا شيء في الوديان غير مخلّفات الجنود والمستوطنين! غير أن الحاخام أبلغ الجنرال بأن هارمجيدو ستقع قريباً وستفيض الوديان بالجثث والديدان.

***

لم تكن دموعها مائية شفافة، إنه الابن الثاني الممدّد في النعش.. وإنه عَنْدَمٌ كاوٍ وأرجوان يغلي.

***

قدّم له شرابَ الزنجبيل وعيدان الخبز وقطع اللحم المجفّف، ولم ينتبه إلى أن وجهه كان في الكهف، وأن عموده الفقري يتغضّن كالسمك القديم، ولم ينتبه إلى أنه جاء من عَبَّارةٍ

تُفْضي إلى غرفة الآثار.

****

وضعوه وراء القضبان، فأخذ يرسم زهرة عبّاد شمس، وبعد حين غطت الزهرةُ السجن، ثم غطت الأحياءَ تباعاً.. إلى أن أصبحت المدينةُ زهرةً كبيرة، ومن يومها صارت زهرة المدائن والشمس.

****

أولئك الزين كرّسوا حياتهم للزلّات والضلالات والكبائر، من كورش الإخميني وهيرودوس الأدومي وريتشارد قلب الأسد وهتلر وجنكيزخان إلى بوش وشارون.. كيف لنا أن نذكر أسماءَهم الممجوجة،

ويكونوا خالدين، ويحظوا بمرور أسمائهم على ألسنتنا؟

إنهم اللعنة وخنازير التاريخ.

****

عندما أقاموا المئذنة على جبل موريا المختار، أقاموا الجرسية على جبل أُكر المقابل له، وامتدت خيوط الذهب بين الناقوس وبلال.

ولم يشاهد أحدٌ، منذ الغَمْر الأوّل غيرَ البوابة المؤدية إلى البلدة القديمة على جبل نبريتا.

****



ألقدسُ راقاتٌ ملتصقة بالشّيد والسُّكّر، وثمة عشرون مدينة على المدينة، وفي الأعماق آبار المآقي المُطفأة.

***

المرأة التي كانت تخطو في السويقة.. لم تحتمل الأرضُ وطأتَها، فارتبكت، ووقع الزلزال.

***

هنا عَرَّج زرياب، فأكل وشرب ونام، وكان في الليل قد أذاب الحجارة والغيومَ والمصاطبَ والغصونَ، ونثرها حبّات تسطع كفراشات النار في السماء، ثم أخذ من جديلة الفَرس أوتاره، لينثر الأندلس على التلال.

***

.. وأخيراً تم الاتفاق على أن يقوم أصحاب الأفران في "المسرارة" على تقديم كعك السمسم والزعتر والفلافل والبيض المشوي لأهل الجنّة، وقد وقّع الطرفان على العِقْد الأبدي.

***

لقد سقطت صخور المنجنيق، فقتلت صانعةَ الجبن، فترحّم عليها جيرانها، ولم يسألوا عن سبب بقائها في البيت، والأبواق تطلق أصواتها المُحذّرة!

***

كانت حارات القدس: المغاربة، الشرف، العلم، الحيادرة، الصلتين، السعديّة، الأرمن، السلسلة، الواد، حُطّه، النبي داوود، النصارى، الريشة، بني الحارث، الضوية، تنظر إلى الحصن العظيم، حيث الطبلخانة تدقّ كل ليلة بين المغرب والعشاء، على عادة القلاع في البلاد.. وصارت الحارات وأسواق القطّانين والعطّارين واللحّامين وخان الزيت والكبير، لا ينظرون إلاّ إلى الصورة، يسألونها عّما يحدث هنا كل ساعة!

***

كُلّما صافَحَ القاتلَ، انهدم حجر وأجهضت شجرة.

***

جاء البركان فوضع جبل «المكبّر» في الجنوب،
و«الطور» أو «الزيتون» في الشرق،
و«المشارف» أو «المشهد» أو «سكوبس» في الشمال،
وجبل «النبي صمويل» في الغرب،
فأصبحت المدينة تنام أنّى تشاء، فثمّ وسادة عالية.

***

لطالما رأيتُها في القيروان ودمشق والرباط وقرطبة وبغداد والمحروسة.. وعكا والخليل ونابلس وغزة، ورأيتها في المرأة



المصبوبة من النرجس ووديان الخردل.

***

شظايا مجموعات بشرية كانت محجوزة في كتاب.
وشعب حقيقي يسكن في ترابه وسمائه..
وثمة مَنْ يسعى لمقاربة مستحيلة.

***

البراءةُ والطهارة كانتا هنا، لكنّ الخوف
والوجع تحوّلا إلى كراهية، وبدأت هذه بذبحِ الاثنتين.

***

كانت نساءُ الفرنجة يشبّهن صدورهن بقباب المدينة، فمنها ما يشبه «قُبّة جبريل»، أو «قبة الصخرة»، ومنها ما يشبه «قبّة المعراج» أو «قبة السلسلة»، وكُنّ يفضلن ما يشبه «قبّة الرصاص». أما «قبة سليمان»، فلم تكن قد بلغت الرُّشد.

***

العجوز التي تُصلّي تحت «قبّة الرسول»، وتطيل الدعاء والابتهال، كانت تدخل في المحراب وتختفي، ثم تخرج، فيلمع النهرُ الفتيّ، على صدر ثوبها، ويكاد البلحُ أن يسّاقط من النخلة الفارعة المرشوقة على ظهر ثوبها.. والمسكُ

يتفتّت من بطن الظبي الذي يتبعها.

***

جائزة الأحياء هي الحقيقة،

وجائزة الأموات.. الوهم،

ولا يعودون إلاّ إذا اكتشفوا الدلائل.

***

الشيطان هو مركز هذا البناء، ينام في قَبْوه، ويتجول نهاراً على غُرَفه، ويقهقه ويصارع الربّ، لا يأكل ولا يشرب! لكن أطفالاً اختفوا من الجوار.

***

الأم شيء كبير أمام الأطفال،

وصغير جداً أمام القنّاص.

***

كلّ الحروب مبنيّة على الخداع، إلا حرب القدس،

فقد انبنت على الوضوح.

***

عندما أعلن السجين إضرابه عن الطعام احتجاجاً،

أحضره الجنودُ مقيّداً إلى غرفة المحقّق، فقام الأخير، لإغاظته، بتناول طعامه على مرأى منه..

لقد كانت قطعة اللحم نيئة، وأسنان المحقق المعدنية تقطعها بيُسْر، وتنزّ على الطاولة.

***

نحن أبناء السديم الأول، وأوّل مَنْ حطّ على هذه الأرض، ولم يكن قبلنا غير العماليق، الذي كان جدّهم، عوج بن عناق، يمدّ يده في البحر، فيمسك الحوت، ثم يرفعه فيشويه في عين الشمس، ويأكله..

ومنذ أن كُنّا، وما زلنا، لم يعد العماليق، لكنهم موجودون كالأرواح والرياح والنطفة والجدار والطريق..

لقد ترك العماليقُ بعضَ نقوشهم التي تقول: سعيدة هي الأرضُ التي تلد الأساطير والشهداء.. وحزينة تلك التي تحتاج إليهم!

***

إن أعداء المدينة، على اختلاف عصورهم ووجوههم وألسنتهم، كانوا يأتون من الرماد، ولا يأكلون إلاّ الدم! وهذا ربما الذي جعلهم ينصرفون عنها، فأرضها نارٌ وطعامها من الجنّة.

***

الجنين يركل بطن أُمّه، وتزداد الانقباضات المؤلمة.. وينزل ماءُ الرأس جمراً سائلاً على الفِراش.. وسيخرج

المولود مثل عنقود اللّهب.

***

يا صاحبة الجلالة والسموّ والسيادة، يا بيتَ آدم الناسك فيه!

يا صاحبة العفاف الأوّاب في اللواوين والمحارب والجرسيات!

أرى أشعة الغزالة على أعمدة الجامع، كأنها الخرّوب الفتيّ الأشقر، أو زاد النحلة الشهيدة، أو أحلام الحقائب العابرة إلى الغد الفسيح.

وأرى التراب الذي عصروه فسال العرق والدم والغضب.

وسمعت المنادي النحاسيّ، فردّت المأذنُ على الأجراس تبشّر بالزلزال. وناديتُ، فَحَضر الأبدُ الفلسطينيُ، يجرّ جدائل شمشون وراءه، ويطأ الأرضَ فتنشرخ كالأنهار أمامه، وتفرّ الأشباحُ، وقد ضاق بها الكوكب..

وثمة طفل يلعب في الساحة مع الحَمام..

***

لم تكن الخنساءُ أكثرَ من إرهاصة لنموذج مُوجع، لتأتي بعدها العشراتُ ممَّن سيدفِنّ تسعَ بنات شقيقات، أو ثمانية أبناء، دفعة واحدة، أو البيت كامل الأركان: بزيته وطحينه ودفاتره وقلائده وألبوماته وستائره وزينته وعبوّاته

وخزائنه وملابسه وحيطانه وألعابه وأدراجه وأنفاسه وذكرياته.. المطمورة.

سترفع الشاعرةُ الثاكلُ يديها، في القبر، لتدفع الحجارة وتخرج، لِتلدَ من جديد، وتتفوّق، بجنازاتها، على مَنْ سَبَقْنها من الوالدات.. ولن تستطيع!

فثمة مَنْ لم يبق لها غير كلمات زائغة، تخرج بلا وعي، على شواهد طازجة، تمتد لتكون مقبرة لكل من كانوا لها.

بالصدفة، كانت في زيارة جارتها التي قتلوا ابنيْها، عندما خبزت الطائراتُ عمارةَ أسرتها ذات الطوابق الخمسة.
وبالصدفة كانت قد حملت آخر أحفادها، الذي تعلّق في ثوبها.. وهي خارجة من الباب.

***

كُلّما رانَ الغبارُ زمناً،

وكاد الكبارُ أن يملّوا سردَ الحكايةِ،

يفور دمُ العصفور من جديد،

فيتوهّجُ السراجُ الكوني،

فيرى الصغارُ آثارَ أقدام الغولةِ،

وتتفكك الأسرارُ ثانيةً،

ولا يملّ الحكواتي المضيء، من التبؤّر

في الزوايا المخيفة..



شكراً لهذا الدم الحَرام! الذي يحفظ
ذاكرةَ العرب، ليعودوا، من جديد،
إلى ملامحهم، التي تلهّوا عنها،
باللهاث ودعوات الرضى والمناكفة الساذجة،
وأدركوا أن رأسَ الرمح، الذي
فخت صدرَ العصفور، يقترب من
النقطة الذهبية في عيونهم.. فيصرخون،
ويروحون في الحكاية، كأنهم أبطالها
الناجون، أو شهودها في محكمة
الأحزان...
وشكراً لدم الإنسان هنا وهنا وهنا...

***

يسألُ الناسُ: مَنْ الذي قَهْقَه ليلةَ البارحة؟
لقد دخل الجنودُ المدينةَ، وأثخنوا فيها الجراح!

***

ظلّوا يتطيّرون من الضحك والابتهاج،
منذ أن سمعوا نبيّاً يقول:
إذا أحبّ اللهُ عبداً جعل في قلبه نائحة،

وإذا أبغضَ اللهُ عبداً جعل في قلبه مزماراً..
ومن يومها، يَنْفَضّ الجَمْعُ السعيدُ، وهم يرددون:
اللّهم اجعله خيراً!
لكن الجنودَ يجعلونه قاراً ومسخاً ومقصلة...

***

كانت ساحة الشَّبْح في سجن المسكوبية مَسْلَخاً تُعَلَّق فيه الذبائح من يديها المقيدتين إلى الوراء، أو من أقدامها في كلاليب وجنازير وحلقات الفولاذ، أو يشدّون الذراعين إلى الماسورة بكلبشات تضيق كلّما تحرّك السجين، ولا شيء غير الأنين والألم ورائحة البول والجوع وحفلة الثلج على الأجساد، عندما يتخدّر الليل وتصحو السياط.

***

عندما صعد الجندي، لتهشيم العشّ الراقد منذ الدهر تحت سطح مركز القشلة العسكري، وجد أيقونةً بين الريش وحبّات الكرسنّة، وما إن تناولها حتى احترقت يده، وسقط عن السلّم الخشبي..
بعثوا بالأيقونة إلى معهد الأرخيولوجيا، فدَّبّت النار، وظلّ الحِرْزُ ينبض بين الرماد.



الشاب الذي يملأ أُذنيه بأغاني اللغة الهجينة.. لم يكن يعرف أن اللحن آتٍ من المقصلة!

***

كان الجدار يمنعهم من الدخول إليها، فتسلقوا الحبال المجدولة، واستراحوا قليلاً على سطح الجدار، ثم هبطوا على حِبال أخرى إلى الطرف الآخر.

كانت أياديهم مشدودة، وحِبال الدم تقطر.

***

الحجر الصوّان الأملس

نَبتَ في مساماته العُشب!

.. هل تتذكرون رَشْقةَ الدم التي انسفحت عليه؟

لقد كانت حمراء طازجة مثل ربيع القدس.

***

عندما نظر الربّ إلى الأرض، سقطت عيناه الواسعتان على بَكّة وأورسالم، فأمر الملائكة بأنْ يقيموا له بيتين على الأرض.

***

هل رأيتم أم الشهيد وشقيقاته عندما أدخلوه إلى البيت؟

هل عرفتم، إذاً، لماذا يتواصل الصراخ!

****

ما فتئت أصوات الجان تتصادى في الصحراء النائية، حيث تبني الهيكل، والملك يقيم عَرْشه المظللّ قرب الواحة المطلّة على أرض بلقيس.

****

إنها جنازة السلام أيها الذاهبون إلى إقامتها، لأسبابكم الخاطئة، وإنها أعراس الحرب أيها المقبلون لإنعاشها، لأخطاء أسبابكم.

****

كان قد أخذته غفلة الوسن قليلاً، وهو ممدّد على مصاطب الظلّ في صيف الحَرم! واستيقظ متعوّذاً محوقلاً، ماسحاً وجهه ذاكراً مُصلّياً داعياً أن يُبعد اللهُ العظيم عنه شرَّ ما رأى، فقال له المُعبّر: هذا ليس ضوء النهار، إنه ضوء الحريق!

****

وما فتئت القدسُ ارضَ الكريماتوريوم.

****

شرٌّ قديمٌ يجوب هذه التلال، وثمة مَنْ يرقُبه!

****

ستهمس أصواتهم عبر الحجارة والركام؛ هنا مُتْنا من أجل البرتقالة!

***

لدى الغازي الكثير من العبيد، والقليل من المحاربين

***

أُنْظر إلى هذه الأرض الجميلة!
لقد جعلتَها رماداً.. بسبب نزوتك، أيها الغريبُ المتبجّح.

***

أَتَذْكُر تلك الليالي الجامحة بالطائرات!
لقد كدَّسَتِ الحُطامَ فوق الجثث..
وكانت أحلامُك تتهاوى فوقها.

***

الملك زيركسيس؛ إله الآلهة أو ملك الملوك، أفشى عن عيب قاتل؛ حُبّه للموت

***

ألإله ذو الحلقات المعدنية المدلاّة على بدنه، الصّلب، المتغطرس، الجبّار، المُتشفّي.. يشعر بخوف بشري في جسده!

***

عندما فشلت عضلات الحديد، لجأوا إلى سِحر الإبادة.. من بعيد

***

وزيركسيس يريدنا أن نجثو تحت قدميه، ونسمع سلاسل الفولاذ التي تغطّي جسده المصبوب.. ولمّا رفضنا، أطلق طبولَه في الشجر

***

لا أسرى، لا رحمة، لا سقف، لا شجر، لا جدار، لا مركبة في الطريق..

هذه شيفرة الملك الإله!

***

الأب الذي فَقَد ابنَه الوحيد.. بكى، لأنه لم يخبره كم كان يُحبّه

***

كُلّهم رحلوا.. لكن رجلاً واحداً نَظَر إلى الخلف؛ الأعمى!

***

أيها الإله المُدّعي! لا تَعُد مرةً أُخرى

***

إذا كانت المدينة سجننا، فهي قبركم

***

هنا، على هذه الأرض الدامية، سننقذ العالم من الطاغية

****

سيعرفُ التاريخُ أن رجالاً، بين الأزقة، واجهوا الغول، وانتصروا عليه!

****

الجنود المسخ المقنّعون بالزرد اللامع والندوب الخشنة، يقتلون الأطفال، لكي يأكلوا اللحم الطريّ!

****

الضحايا يأملون بأكثر من المجد..

****

لقد أدخل زيركسيسُ وحيدَ القَرْن ليسحق الجموعَ، بسيف قَرْنه المجلوخ بالعِظام!

****

ألإلهُ الخائف يصرخ من ألمِ الهزيمة، وقطعِ رأس الكركدن، ولسانِ الساحر، وخوفِ الأَحدب! لقد تبعثَروا بلا معركة..

****

كانوا يريدون سحق الحياة.. بداخلنا

****

سيكون لديكم قصة عظيمة تحكونها لأحفادكم، أيها الأطفال الباقون

****

إن شجاعتكم تجمعنا.. أيها المدافعون عن الأحلام

****

شعبك يتنفّس في ظهرك، أيها البطل! فانتصر!

****

كانت تصّاعد من كتفيه أفعتان، تزغللانِ في الهواء، وترنّ أجراسهما فوق شرائطه، وتلتقطان النَّحلَ السارح، ثم تعودان إلى ذراعيه، فيبدأ الرصاصُ من جديد، وتذبل الزهورُ في الحقول.

****

الشهيد يشهد على دمنا،

وبأننا تحدّرنا من سلالةِ العمالقة الذهبيين

****

الكوابيس هنا نهاريّة، واضحة، تراها وتسمعها.. وتعبيء وجهك بالدخان والغبار

****

يمدّون أيديهم داخل رَحْم المرأةِ المعلّقة من ذراعيها،

ويمسكون بالجَنين، ويخلعونه من مغارة بطْنها.. فيخرج ورديّاً ينبض بدمه.. فيلتهمونه طازجاً!

****

ما من أغانٍ تنُشدها أيها الكوكب!

هنا العويل والقشعريرة والجنون..

****

السّهر والحسّ المُضاعف بما يجري، هو الذي

يغذي الرجال في الليل

****

كان المطر يملأ المدى، عندما عاد واحد فقط، من الذين شهدوا المعركة، وسَلَّمَ الأرملةَ الشابةَ هديةَ زوجها الشهيد، والتي حملت إبنها، ووضعت التذكار في عُنقه.. وهي على يقين بأن القلوب الحزينة ستفرح مجدداً.

****

لم يكونوا يريدون حفل تكريم أو نصباً تذكارياً أو

أُغنيّة.. كانوا يريدون الخبزَ والهواء..

****

عندما قصفوا الجامع، قام الشهيد- والدم يسيل من وجهه الشريف- تمتم من جديد، وترك المقامَ، فخاف الناسُ عليه،



لكنهم اطمأنوا بعدما وجدوا جثّته خضراء، وقد نخّلتها الثقوب، ووجهه يفيض بالمجد والطموح

***

كان الجندي المُنهار يهذي- وهم يحملونه إلى المشفى- بكلام مُبْهم عن الأشباح، التي خرجت من يديه ومن سلاحه، من أذنيه وعينيه، من خلفه وأمامه، ومن عجلات المجنزرة الهادرة..

***

هنا ينطبق القول القائل: الجميلةُ قتلت الوحش!

***

الخبرُ الجيد: أننا نغنّي..

الخبرُ السيء: أننا نخرج عن اللحن..

***

هذي التلّةُ ذات الخصلات البُنْدقية، والنور الذهبي، والولعُ المثير.. كانت تعجُّ بالعُشّاق والطيور، وكان الجرسُ يزورها ليعطي صوتَه للمُغنّي في المساء.. لكن الجحيمَ المصبوب وصراخَ الهمج، جعلها جرداء.. كوجه الأعمى أو المومياء

***

الدم! الدمُ وحده، ذاكرةُ الحجارة في المكان

***

قال الشيخُ: سأجعل عكازتي قامةً للبيوت

وقالت المرأةُ: أيتها العاصفة تزوجيني، لأنجبَ من جديد

وقال الرجل: سأعتذر من موتي.. وأعود

وقالت الحجارة: سنطير بأجنحة المنديل

وقالت الغيوم: سأريق بَرْقي المُذاب

وقال الناي: سأبعث الرياح، لتأخذ الوباء إلى الويل

وقالت الشجرة: سأقف في وجه الدّاهمات

وقال الطفل: سأُدوّم مقلاعي في الجبال

وقال الأليفُ: سأنشب مخالبي في جسد التنّين

وقالت المبروكة: سأنهش جلد القرصان المدبوغ

وقال الطير: سأفقأ عين العتمة

وقالت الشمس: خذوا أناشيدي

فقال الحصان: هذي جدائلي.. فاصعدوا

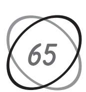
***

الجنونُ أفضلُ من الجُبن، ومَنْ لا يجنّ لا يعوّل عليه

***

أخطأ "إليوت"! فالعَالم، هناك، سينتهي بالإثنين:
الإنفجارُ والأنين
أما هنا، فسينتهي بماء الزّهر
***
الشاعرُ ليس كاهناً، لكنه يرى الحبَّ عندما تكون السماء كالفردوس، ويرى الصبايا وهنّ ينظرن إلى سيف الضوء، ويعبّئن الجرار بالورد، وينعفْنَه على العاشقين
***
لقد ثملت سحليّةُ الرّعد من دم الهنود الحُمر، قبل أن يقوم شامان القبيلة باستدراجها إلى كمين العدم.
لقد كانت علاقة معتوهة وسقيمة، تلك التي دعت إلى تقديم الأضاحي الآدمية إلى هذه الضخمة! بدعوى أنّ أحداً لا يقدر عليها...
لكن الشامان استطاع.. وها هي جيفة في قاع الواد، والدم رطب على الأرض.
***
نَظرَ العرّافُ في كأسِ النار، ثمة مَنْ يبتسم في قَعْرها، قال، والأوارُ يلمع على شفتيه!
سيولدُ هنا، بعد الحطام والشظايا، وسيكون له عَرْشٌ ساحر،

وستصل عرباتُه إلى أفاعي الثلوج.
في حضوره تتفوّقون على أنفسكم، وإنْ نظر إليكم ستتمّ المعجزة، وسيضحك لكم الزمان!
ستكون خيولُه بلا عدد، جلودُها ماءٌ،
وأجنحتُها غامضة، وستبدو أشجارُه ترياقاً للقلوب.
لقد حملته في أحشائها لينتقمَ لها، لكنّه تجاوز الرمادَ، وتمرّس بالمعرفة والجموح، حتى دقّ عُنقَ الخرافة.
لا مجد بلا معاناة، وبكى العرّافُ حتى ابتلّت
عينه البيضاء! ثم صرخ: المسكين! العظيم!
إنها حياةٌ مُوحشة، يَسْتَعْبِدنُا بِمَجْده، ويتركنا أحراراً إلاّ من ذكراه الساطعة.. انتظروه..
إن أُمَّهُ تصرخُ من آلام المخاض.
سيتناول أعداؤه العَشاءَ في الجحيم،
ولن تكون شمسٌ في السماء، سيكون شمسَ الأرضين.
سيُغطّي الأرضَ بدمهم، ويتبعهم إلى آخر الحشرجات.
ستعلو صواريه، وينزل بالغيث حيثما يشاء، وسيفقأ عينَ الثور.
ستشكره البواشق، ويمّحي عُرفُ الديك الزائل، وتتلاشى صور أعدائه كالهواء.



ستحترق الأبواق، ويذوب المعدن من الصراخ.
ستفيض الوديان والحُفر والأخاديد بالعفونة
والديدان وثياب الحديد، إلى أن تتجشّأَ الفراخ،
ثم تدبَّ النار والطهارة، وتمطرَ غيومُ الصيف
سبعة أيامٍ بلياليها.
ربما لم تلده أُمّه، بل خرج من مرْجَل العويل والقهر.
سيجفّ على قميصه النُّعمان، ويتقشّر فوق دفقات العَرقِ
تحت الظهيرة.
سيدخل المدينةَ العصّية، كما دخلوا مدائن الأساطير.
سيلاعب السَبْعَ في الكمان.
سيحمل إليه أبناءُ رعاة الماعز والبرابرةُ
صناديقَهم، ويفرحون بالعفو.
سيعضّ قلبَه عطرُ الزهرة ذات الخُصلاتِ الفاحمة.
والشكُّ هو الذي يكشف أسرارَ القلوب، لكنَّ الوقتَ قد تأخّرَ،
وهو ليس هشّاً ولا نبيّاً، لكنه ينسى، كعادةالبشر، أن ثمةَ
خَوَنةً في البيت.
سيصل إلى المجهول والبعيد، ويتحدّث عنه التائهون في
الأصقاع، وينسجون حوله الهالاتِ التي يريدونها.
سترقص له الغزلانُ في الغيوم، ويعذّبه بطنُ الأنثى، ويحلم



بحليب الياسمين.

سينثرون الأرزَ لياقةً تحت أسواره، ويشرق بالحِبْر الأبيض، وتسبح على جدرانه الغاباتُ والأحلام.

وحينما يبلغ القمةَ سيرى وُعورةً لا تبلغها أو تقطعها إلاّ الآلهة، فيضطر أنْ يسلك طريقَ النحل والحرير.

سيرتجف ويقشَعرّ، هذا القوي العنيد، ولن ينحني، لأنه بعيدٌ عن العار وشهوة الخشب.

ولن يتعجرف كالمُهر الأَرْعَن.

لن يخذله جسده، ولن تتجرأ عليه الأيام،

وسيبقى عابداً زاهداً بسيطاً.. وباسلاً إلى أنْ يشيبَ الأحفاد، ويحملوا خارطةَ الروح.

ولأنَّ الإفتراء ضعفٌ، والرؤيا بشرى، فلا بأس أن تضحكوا أيّها المتوحّشون، لأنكم لن تجدوا حتى الدمع، بعد حين.

وبعد حين بعيد، ستبهت أعراس الانتصارات، وستبلى الذكريات، وتتفتّح حواسٌ جديدة، تعبّ من عالمِها الحديثِ صيحةَ الكسل الطويلة، ولن ينتبهوا إلى التمثال والشعلة والنشيد إلاّ في المناسبة، كل عام.

فاتبعوا حُلمَكم المخبّأ في العاجِ والأدهمِ الشجاع!

وتلقّوا الطعنةَ النجلاء التي ستفتح كُوةَ النهار.

ويبدو أنَّ فذاذته تكمن في أَنّهُ أنقذنا من أنفسنا.

إنه مكافح سماوي، وإنني أراه..

في فرط الرُّمّان،

وعلى سواحل الماكرات الليّنة،

وفي ريق الخلاسيّات،

وفي كأس النار.

والحالمون يُرْهِقون مَنْ يصّدقون أحلامَهم،

فاحذروا، إنكم تدخلون دوامةَ البؤس والبكاء،

لتخرجوا أكثر كرامةً..

وإنني أراه.. إنني أراه

***

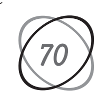
يكفي لتبتسم لنا الآلهة

القدس في قرطبة

(١)

أُمُّ المدائنِ،
أو مُسْتَقَرُّ الخلافةِ والأرجوان،
والسِّحْرُ في حَجَرِ الوردِ والماءِ،
والشجرُ الحالمُ اليَقِظُ المرمريُّ،
مِن قَبْلُ ومن بَعْدُ..
تبدو لنا شَهَقاتُ المآذنِ،
من حيثُ تدخلُ،
أَنَّ الصلاةَ بها ألفُ وَقْتٍ،
لِطيْرِ الحَمامِ وغيْمِ الجِنانِ.
تقولُ كأَنَّ الذي قد أقامَ المعابدَ
والواجهاتِ، وأقواسَها العالياتِ،
وأَدْراجَها، كسلاً للطريقِ،
هو الجَانِ!
أو أنَّ بعض الملائكةِ الحالمينَ

أتوا بالمياهِ إلى فَنَنٍ نائمٍ
في ارْتخاءِ المناديلِ والموج،
كانوا يُنادون بالدَّمْعِ مَنْ رفعوا
بابَها.. للزمان.
كانت بِجامعها أجملَ الأرضِ،
في آيةٍ أنْزَلتْها، إلى الناسِ،
آلهةُ الحُسْنِ..
قُرْطُبةُ العَرْش!
والنُّورُ أندلسُ الأُمويِّ، الذي
حَلَّ في ذَهَبِ الأُقحُوان.
وكانَ.. ما كان!
فَيْضاً من اللؤلؤ البِكْرِ، في رَحِمِ الخَلْقِ
قد مكَّنَتْهُ الخيالاتُ كي يرتقي سُلَّماً
للبروج، على أُفقٍ من حليبٍ،
فجاءَت، كما شاءَ، رسْماً
على غُرّةِ البَيْلَسان.
والزّمانُ، هنا، اثنان ؛
شِعْرٌ وخيلٌ وموقدةٌ للنجوم،
وصفصافُ عُرْسٍ أفاضَ على غابةِ المسْكِ
بالصَّحْبِ،



والعودُ مشتعلٌ بالقيان ،
والدَّنُّ ممتلئٌ بالندى للغُصُونِ ،
التي رَقَصت كالدّخان،
فكان الغناءُ
الموشَّحُ بالماس والكهرمان.
والزمانُ، هنا، اثنان
ليلٌ غريبٌ ثقيل الخُطى،
زائغٌ شبحٌ يرتجي نَهْبَ فردوسِها،
بعد أنْ جاء كي يأخذَ الحَرْفَ
و الترجماتِ، وما أنتجتُه النوارسُ
في شاطئ القمرِ البربريّ،
حتى أضاءَ المدى بالنخيلِ،
من الشامِ برّاً إلى مصرَ فالقيروان..
ومن ساحل الفَتْحِ حتى المضيقِ
ليعبرَ صَقرُ الإمارةِ فوقَ الحصان.
ويبني مع الجَمْعِ قَصْرَ الحكايةِ،
من قبل أنْ يكشفَ الذئبُ
عن شهوةِ اللحّمِ
في عتَماتِ الدهاليز،
والبحثِ عن جِنسِ مَنْ عَلّموُه البيان.

وكان..

وما كان غيرُ الحريقِ، الذي

أكل الحقلَ من أوّل الرملِ

حتى الشواشيَ في آخر الصَّخرِ،

هذا جزاءُ سنّمار يا مَنْ تأصّلَ

في الجامع الأُمويّ،

وأصبحَ خَلْقاً جديداً..

فهل يا تُرى سوف تذكرُ

أن هلاليَ كان الضياءَ،

الذي ظَلَّ مُنْسَرباً

في الصليبِ أو الشمعدان!

فكيف ترىَ وجْهَ قُرطُبةَ الآن؟

وكيفَ بآلائِها تَكْذِبان؟

(٢)

لو أنَّ "سينيكا" أتى لبكى،

وقد يتراءى له في تأمُّلِهِ ما يفعل المُلْكُ

بالأُخُوةِ الكارهين!

وما يفعلُ ابنُ زيادٍ ورمحُ مُغيثٍ

ومَنْ وَحَّدوا ربّهم،

وأعادوا لها دارهَا،

إنْ أتاها الملوكُ، وقد دَجَّنوا أهلَها،
قبل أنْ يَلجوا في المُسمّى "مديخار"؟
أو بعد أنْ يبحثَ الغرباءُ عن الوجهِ والدِّين!
قد سقطت دولةُ العشقِ!
والرَّوضةُ الآن في دَمْع زهرائِها،
أو دمٍ لا يجفُّ على نُزُلٍ
مثل سبعةِ أبوابها،
حول روحِ حدائقها،
في صحونِ مساجدها،
عند حصنِ نفائسها،
خلف إيوانِ جامعها،
قُرْب ليمونِ حضرَتها،
في تلافيفِ صدفتها،
بعد مقصورةِ المنْبَرِ المُرتوي
بالنواعيرِ والشمسِ
ونارِنْجِها،
أو بسرْبِ فراشاتها..
وابنُ رُشْدٍ يقلّبهُ العقلُ والنَقْلُ
في وَقْعِ ألوانها،
وابنُ حَزْمٍ بِطَوْقِ حمامتِه يرسمُ العاشقيْن؛

(ولّادةً وابنَ زيدونَ)
والظلُّ ريشتهُ في جناحين من وَلَه،
كي يطيرَ ابنُ فرناسَ في حضرةِ القُرطبيّ
أو الغافقي..
وزريابُ يبني
على أُغنياتِ الطيورِ جُسوراً
لنهرِ "بيتيسَ" أو يعقدُ اللّحنَ
في عروةٍ للخلودِ، فتمشي إليه القناطرُ،
من وادها،
كي تَبْلُغَ الروحُ لحنَ الرجوعِ إلى الغائبين.
وابنُ ميمونَ يأخذُ من منْجمِ الضادِ
ما يجعلُ الرّوحَ أكبرَ
من لَوْثَةِ التائهين.
والقدسُ مثلُ قرطبةَ، الآن
نصفُ غائبةٍ.. حاضرة،
منهكةٌ ساحرة،
رابحةٌ خاسرة،
جنّةٌ ثائرة..
ولَهَا زفَّةُ الياسمين.

(٣)

والشاعرُ في إغفاءتِه،
يغسلُ أثوابَ قصائدِه،
فتمور أراجيحُ الشيطانِ،
وتمتدّ من النهر إلى غاباتِ الغيمِ،
ويقطفُ تفاحتَه الأحلى،
فيرى أدغالَ السُلطانة "أورورا"..
ويكاد المشهدُ أنْ يكتملَ،
ليطفحَ كأسُ الشُرفاتِ على الغَيْبِ،
ويصحو الهاجسُ؛
قرطبةُ الذروةُ، فلْتهبط أنجُمها للطين،
فإن نضجَ الكَرْمُ ستسقط
حبّاتُ التين ،
وإنْ ثملَ الماءُ من النارِ،
سيشرَبُه التنّين!
وهذا الإكليلُ على رأسِ الزهراءِ حزين!
فيا قُرطبةُ! متى نصلُ القدسَ؟
لنعرفَ أنَّ التفتيشَ عن الكامنِ
في الاضلاع، سيأخذُنا بالشُبْهة
للمذبحِ، ثانيةً، أو ثالثةً أو ألفاً..

والعالَمُ لا يسمعُ، لا ينطقُ ،

لا يتراءى في عينيه سوى

ما شاء..

فكوني يا قرطبةُ بكاملِ زينَتِك،

ليأخذكِ القشتالُ إلى السكِّين.

هنا المدنُ الضائعةُ على مدّ الخارطةِ ،

فهل سيجيء الشاعرُ بعد قرونٍ أُخرى،

ليرى في قرطبةَ القدسَ؟

وإيقاعَ الشِّعرِ سَويّاً،

والقاعةَ حُبلى بالناسِ،

وقصر الحاكمِ ذاتُ السورِ

وذاتُ السّين؟

سلاماً يا غربةَ شاهدِكِ الحيِّ،

سلاماً للموتى الماشين

بلا قنديلٍ

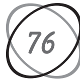
للظُلماتِ إلى صِفّين.

سلاماً للأبواب، الثامنِ والتاسعِ.. والعشرين

سلاماً، والأصداءُ على الأقواسِ

من الأجراسِ إلى الأعراسِ،

إلى الأيقونةِ،



والجدرانُ هي "الكازارُ"
فلا زهراءَ ولا أسوارَ
ولا غرناطةَ.. أو حطّين!
وهذي أعرافُ الفَرَسِ المهزومةِ
في الحربِ،
ورقْصةُ من عادوا ثانيةً للقتلِ،
على دَفِّ "الفلامِنْكو"!
فاستمعي يا قرطبةَ السِّحْرِ
إلى أنغامِ الرُقمِ الطينيِّ المحروقِ،
على جَنَباتِ خرائبِكِ،
هنا بابلُ أو بترا،
والقدسُ هنا إن بقيَ ملوكُ القدسِ،
وأَسألُ: هل كانت أندلساً حقاً؟
نينوى؟
يا لها!
لم تَعُدْ سورةُ الزُخْرفِ الآن،
في سِفْرِها!
كان عَرْشٌ وبَهْوٌ
وسيفُ الصقالبةِ الحازمين،
وأحواضُ زئبقِها الرّخوِ،

والجنْدُ والدارُ والعاجُ والأبنوسُ،
أو النقشُ والتِّبْرُ،
والبدرُ إنْ ذابَ في هَدْأةِ الساهرين..
وسَبْعٌ وريمٌ وأفعى،
وطيرُ العقابِ، ووفدٌ من الفقهاءِ،
وبعضُ الحجيجِ وتجّارِها المارقين،
وسربٌ من الشعراءِ الذين
أتوا من نِفاقِ الموازين،
أو تلك التي راوغت قلبَها،
وآبنُ أبي عامرٍ سوف يبني له مَدْرجاً
للحنين،
إلى أن يُحَرِّقها الحقدُ في الدَّاهمين..
سلاماً، إذاً، للتماثيلِ والعنبرِ الذهبيِّ
على بابِ "إقباءَ" في الأوَّلينَ
وفي الآخرين.
وشكراً.. لأيّامنا في السنين.

القدس اسم عاشقة

من ساحلِ البحرِ حتى قُدْسِ أَقْداسي
تمتدُّ شمسي وأشجاري وأعراسي
هنا القبابُ على الآفاقِ ساجدةٌ
بِتبْرِها وهناك الموجُ بالماسِ
هنا تُشرّعُ خيلُ اللّهِ أجنحةً
ويعتلي حمأةَ البُركانِ مِتْراسي
ويرْجِعُ العيدُ في المحرابِ إنْ صَدَحتْ
مآذنُ القُدسِ في ميلادِ أجراسي
كتبتُ عُمري على زيتون دمعتنا
فأزهرت في يراعي شمسُ أطلاسي
يا أرضَ كنعان إنَّ الليلَ مُتّصِلٌ
فَأَرْجعي لدروبِ الفتحِ أفْراسي
ووحّدي الأَهلَ، كادَ الضدُّ يقتُلني
هذا كُلَيْبٌ وهذي أُختُ جسّاسِ

وتلكَ داحسُ والغبراءُ قد بُعِثَتْ

مع البسوسِ، على رِجْسٍ وَوسْواسِ

وهذهِ في رُبى صِفّينَ قد جَمعَتْ

أبناءَ عَمٍّ على نابٍ وأضراسِ

فأوقفي غَبشَ الأحقادِ آن لنا

أنْ نُفْرِغَ الكاسَ، إنّي أُترِعَت كاسي

أنا ابْنُ عبدِ مَنافٍ حينَ تندهُني

فيستجيبُ عليٌّ وآبنُ عبّاسِ

والفاطميون أخوالي إذا هَدَلتْ

أُمّي، يكون جميعُ القوم جُلاّسي

هذي عباءَتُكِ الشقراءُ سابحةٌ

في الغيم تهمي وروداً فوق أقواسي

ويهتف النَخْلُ في الريحِ التي عَبقت

خُذْني لبيّارةِ الليمونِ والآسِ

يبوسُ! قد فَهَقَتْ في الشاطئين لنا

نارٌ تُضيء ذُرى يافا وعمْواسَ

أنا المحبَةُ والإسلامُ، عارمةٌ

مراكبي، وعلى الراياتِ نبراسي

أنا الشآميُّ والنيلُ الذي عرِفوا..

وابْنُ العراقِ وكلُّ الخَلْقِ مِن ناسي

أنا البدايةُ والطينُ الذي آشتعلتْ
به النجومُ، فذابَتْ فوق أنفاسي
أنا المحيطُ، وسدُّ الماء إنْ عطشت
هذي المجرّاتُ، والآوراسُ آوراسي
والأبجديةُ كانت بعضَ ما نَطَقتْ
به حروفي، فكان البرقُ كُرّاسي
أنا السفائنُ من قرطاج إنْ مَخَرتْ
على الضفافِ، وحقلي باذخٌ راسي
أنا القناديلُ، لا فجرٌ سيشرق في
هذا الزمانِ، سوى من زيتِ قرطاسي
أنا معلّقةُ الصحراء باقيةٌ
ما دام سِحْري على حِبْري وأطراسي
أنا المدائنُ من صَنْعا إلى حلبٍ
وهي الحضارةُ من نجدٍ لمِكْنَاسِ
أنا عروسُ عبابِ الشّهدِ في بلدٍ
يمتدُّ من أخمص المرجانِ للراسِ
أنا يبوسُ، وهذا اسمٌ لعاشقةٍ
وجنّة جمعَتْ نايي وقُدّاسي
أنا على شَفَةِ الدّنيا إذا ٱبتسمت
وخافقي وترٌ من عهد حُوراسِ

أنا البراقُ، فمَنْ يرقى إلى نَسَبي
دربي السماءُ وزادي ملءُ أكياسي
فتحتُ بابي على العشاقِ فاجتمعوا
حولي؛ الحجازيُّ والنوبيُّ والفاسي
قدّمتُ مائدةَ الأنوارِ فامتلأت
كأسُ الرؤى بالرّضا.. من جَمْرةِ الطّاسِ
يا قُدْسُ! هذا دمي الناريُّ فاغتسلي
وهذه عاصفاتي تحت أرماسي
إني أُحّبك يا قُدْسَ البلادِ هوىً
يفوقُ دَفْقةَ أضلاعي وإحساسي
فكلّما ذكروا عينيكِ، سيدتي
أرى الفراديسَ في مرآةِ أَحْدَاسي
يا اُسمَ الشقائق والريحانِ، عابثةً
به الفراشاتُ أُنْساً فوق إيناسِ
يعزُّ ياقدسُ أنْ تبكي على كتفي
والأنبياءُ على أعتاب نَخّاسِ
يعزُّ، لكننّا بالحقّ نُرْجِعُها
قُدْ ساً تقولُ: هنا أهلي وحُرّاسي

في القدس
مريم تفرش رداءها للرسول

للسّورِ ظِلٌ لا يراه الراكبون،

فربّما ظنّوا خيالَ مواكبِ الإسفلتِ

ما يُعطي الشوارعَ لونَها،

ويهرولون على امتداد سطوحِها،

ويعلّمون مفارقَ الطرقاتِ بالوَهْمِ الخفيفِ،

ويكتبون على الحجارةِ،

ما يؤكّد رحلةَ الصحراءِ،

أو أهواءَ بعضِ المُدَّعينَ

بأنَّ موسى جاء مُمتطياً جواداً..

كي يُسَلِّمَ وعْدَهُ للهاربين

من الجبابرةِ الرُّعاةِ، على السواحل،

عابِدي حَجَرَ الحديقةِ في الصباحِ،
وآكلي رُمّانَ عشتارَ الشهيّ
على العَشاء،
وقاتلي وحشِ الخُرافةِ،
قبل أن تسري الزوارقُ في السؤالِ..
وكان قد ملأوا الجِرارَ،
بما يفيضُ من التأمّلِ..
زيّنوا الحَبَقَ المُرنَّقَ بالحريرِ،
ولوّنوا أكمامَهُ بالأرجوانِ..
وأورسالمُ قِبْلَةُ الناموسِ،
إنْ صَلّوا وصاموا..
لم يكونوا غير ما كانوا، سحاباً
أو مواقدَ في عشيّاتِ الغناء.

***

وأورسالمُ تسترُ العَوْراتِ
بالصخرِ المُضَلَّعِ والمُلوَّنِ،
تدفنُ السيفَ الغريبَ
وقوسَ قاتلِها..



ليصدأ أو ينامَ،

ولا ترى إلاّ محاريثَ الشتاء..

وتستفيقُ على صلاةِ القاطفين

زبَرَجدَ الزيتونِ،

تُسْرجُ خيلَها وفَراشَها للهيبِها..

وينزُّ من أعرافِها عَسلُ الشروقِ،

برقْصةِ الفتيانِ،

إنْ حَمَّ السباقُ أو اللقاء.

***

والأنبياءُ من الهديرِ إلى الغديرِ

تواثبوا،

حتى يجيئوا أورسالمَ..

والذي عبَرَ المدينةَ كان منّا،

أو لهذي الأرضِ ماءً في الوسادةِ..

نامَ في أولادهِ،

وتوالدوا،

وتعابثوا،

واستأجروا ذئباً بريئاً، مرّةً،

أو أنشأوا مُدناً،

وزادوا في النقوشِ،

وهدّموا أبراجَ مَن ختنوا الصغارَ،

وغرَّبوا صوبَ الرمالِ،

ولم يعودوا..

لم تزل أصداؤهم في ملعبِ النسيان!

وانفرجَ الزمانُ على الصبيِّ وأُمِّه،

ليعود فيه الأمنُ، ثانيةً، ونعرفُ

ما مدى الطاعون في لَحْمِ الخِرافِ،

وأنْ يقومَ الميّتونَ من النعاسِ أو الفناء.

****

ويجيءُ من رملِ الجزيرةِ

مَن يُبَشّرُ بالخلاصِ،

ويمنحُ البشرَ الطريقَ إلى الموازين،

التي غابت..

ويبدأُ عهدَه بعدالةٍ لم يعرفوها،

أو يبدِّلُ ليلَهم بنهارِهم،

ويقودهم لكرامةٍ هُدرت طويلاً

في العماء.

يا ناقةَ البدويّ!

يا ثوبَ الخشونةِ والرّضا!

الآنَ تختمُ بالحروفِ الواثقاتِ

على العهودِ.. ولن تبددَها الحروبُ،

أو المُدجّجُ بادِّعاءِ الادّعاء.

فهنا الأَخوّةُ في المكانِ أو الزمانِ،

لكلِّ مَن يأتي ويذهبُ،

دونما سِتْرٍ ظلاميٍّ،

ويبدو خلفه الساطورُ،

أو يخفي الأفاعي في الثيابِ..

وكان عرياناً وحيداً،

في الزوايا .. كالإناء!

وقالَ: عُدتُ! ولم يكن أصلاً ببيتي،

في الأمام أو الوراء!

فما له أن يأخذَ المِحرابَ،

أو يأتي على أيقونتي،

جهراً وسِرّاً،

بالحريقِ أو الفؤوسِ..

ولم يكن موسى هنا،

وأتى يهوشعُ غازِياً؟

وأنا وريثُ رسائلِ الوحيِ، الوحيدُ!

فَلا جدالَ ولا نقاشَ سوى السلامِ

على المدينةِ.

والسلامُ لها ولي،

ولمريمَ العذراءَ

تفرشُ للرسولِ رداءَها،

وعلى خيوطِ ردائِها بعضُ الدماء!

وجهُ القدس

للقدسِ وجْهٌ آخرٌ

يُعطي المآذنَ صوتَها،

ويُعيدُ للجرسيّةِ البيضاءِ

ما افتقدَ الحَمامُ من الهديلِ،

ويحملُ امرأةً تبيعُ الخضرواتِ

إلى السبيلِ..

لتفرشَ النعناعَ شالاً للطريقِ،

ولا تُعدّدُ ما لديها في السلالِ..

فكلُّ ما في الأمرِ، قالت:

قد أرى الفَرَسَ المُجنّحةَ السريعةَ

في البُراقِ،

وقد أُسلّم باليدين وبالعيونِ على النبيّ المُصطفى

- صَلّوا عليهِ-

وربّما ألقى المسيحَ..

فعندها سيعيدُ لي وَلَدي،

ويُبْرِئُ صدْرَهُ من صَلْيةِ القنّاصِ..

أو ألقى الطَّهورةَ مريمَ العذراءَ

تمشي في الطريقِ!

لَسوفَ أجثو، ثم أُلقي وجهيَ الباكي على أقدامِها،

وأَضُمُّها، وأُعانقُ النُّورَ البَتُولَ..

وقد أقولُ: أنا وأنتِ الثاكلانِ،

وذابِحُ الاثنينِ واحدْ.

للقدسِ وجهُ القوسِ، ألواناً

من الكَرزِ المُشِعِّ،

وسَرْبِ أطيارٍ من النهرِ الكسولِ،

وجُرحِ ليلٍ يشربُ النارِنْجَ والتوتَ الصبوح،

وغُرّةِ المُهْرِالجموح،

وشَهقةِ التينِ المُشَطّبِ،

وانفعالِ الياسمينِ على الوسائدْ.

والقدسُ قلبٌ في ضلوع شقائقِ النعمانِ،

في صَدْرِ الزمانِ،

ونبْضُهُ في كلّ حَدْبٍ

راكعاً لشواهدِ الصبّارِ

في وَهجِ القُرى،

ويعودُ يرفعُ رأسَهُ

ليرى انحناءَ السنديانِ

على المعابدْ.

للقدس وَجهٌ قد يراهُ الناسُ،

لكنَّ العيونَ بِكُحْلِها النَّبويِّ

يعرفها الفتى الناريُّ

إذْ قَدحَ الغيومَ فأرعدت بَرْقاً

يُضَفْضِفُ في شرايينِ السواعدْ.

والقدسُ خَاتمُ عُرْسِنا الأبديّ،

منديلُ الزَّفافِ،

ورقصةُ الجَمَراتِ في ذَهبِ القلائدْ..

ونشيدُنا بمسيرةِ المفتاحِ؛

هاجرَ ثم قاتلَ..

فهو عائدْ..

والقدسُ من وجع القصائد.

مركبة في القدس

يَمشي على الجَمْرِ،
يَنْفثُ من فَمهِ النّحلَ،
يلعبُ بالأفعوانِ المُكحّلِ،
يبدو كأنَّ كلاليبَ حمراءَ تحملهُ..
في الهواء..
فيرجع للقدسِ
يرسمُ خارطةً من جديدٍ..
ويبكي على مُلْصقٍ من حديدٍ،
ويمشي مع الباعةِ العائدينَ
إلى وردةٍ في النّداء..
لهُ اليومَ أنْ نحملَ النّعشَ
للشمسِ،
أو ننحني تحت قُبّةِ صخرتِنا،
للبلادِ،

ونحملُ أسماءها للبعيدِ..
ونُعطي الإشارةَ للاجئينَ
بأنْ يَعقدوا خيْطَ منديلِهم للنشيدِ،
وأن يخرجوا من سوادِ العراء.

***

رأى القدسَ!
فاجتمعت في يديهِ الأساطيرُ..
كادَ يطيرُ..
فَجَاء الملائكةُ الشاهدون،
على عَجَلٍ، يحملون الشهيدَ،
إلى عُرْسهِ في بلادِ السماء.
هو الآن في جَرَّةِ الغيمِ
يهمي علينا..
بكلّ الذي مَرَّ من حولهِ،
من رعودٍ وبرقٍ..
ويهدي لنا من نثارِ المَجرّاتِ
ما يُسْعِفُ المسجدَ المرمريَّ،
ويُبْقي على قِبْلَةِ الأولياء.
يعودُ بكاملِ زينَتهِ،

والحروفُ تليقُ بهِ،

إنْ تحدَّثَ جَهْراً،

فَما السِّرُّ في الكلماتِ سوى بعْثها

في الخفاء.

سلاماً لِجُلْجلةٍ لن تطولَ..

ففي الظّهرِ نَهرٌ،

وفي الرأسِ بدْرٌ،

.. وفي العينِ مملكةٌ للفِداء.

****

سلاماً لكلّ البيوتِ التي أغلقوها

وكلِّ الجوامعْ.

.. تُقامُ الصّلاةُ على دَ رَجٍ للصعودِ

وبابِ العَمودِ

وفوق الرصيفِ

وتحت المطرْ..

وعند الكنيسةِ

خلف الزقاقِ

وتحت الشجرْ..

سلاماً لكلّ صلاةٍ

على كلّ شارعْ.

وما من مُدافِعْ..

سوى خنجرٍ في ضلوعِ الغريبِ،

وثوبِ الحليبِ،

وشعبٍ تنفّسَ في روحِ مِحرابهِ

بالدّماء.

سلاماً لمركبةٍ في الطريقِ،

ستحملُ حنّاءَنا للعروسِ،

وتُشْعلُ زفّتَنا في الفضاء.

***

وماذا تجَمّعَ في ناظريكَ

وأنتَ تقودُ على سِكّةِ المركباتِ؟

البيوتُ التي انكسرت، مثلَ مئذنةٍ،

أم وجهُ أبنائكَ الأبرياء؟

أم صرخةُ امرأةٍ مزَّعوا ثوبَها،

وهي حاسرةٌ.. للصلاة؟

والعدساتُ تُعيدُ المشاهدَ/

خمسينَ مُفردةٍ للجنائزِ

والقتلِ



والحرقِ

والقلعِ

والـهَدْمِ

والدّهْمِ

والسّجنِ

والمُهْلِكات..؟

سلاماً على الدَمِ ينثرُ أزهارَهُ

في الدّخانِ المُسيلِ..

ووسْطَ العَجاجِ ترى امرأةً،

لا تُنادي!

فلا صوت يبلغُ قلبَ الخليفةِ،

- كان الخليفةُ في

مهْجعٍ للإماءِ، فلم

يرَ مركبةً في الهواءِ

أو امرأةً في العراءِ.. رأى نعلَ

سيّدهِ، ربّما.. فهو

في ساعة الانحناء-

وقد باعَ قُدْسَ الرّسولِ،

وسُرَّ التي مَن رآها.. هَباء!

ويعلمُ أنّ التي صرخت سوفَ

تحمي المآذنَ والسورَ

والناسَ والبابَ والأنبياء.

ويعلمُ أنّ التي صرخت، وَحْدَها..

مَن يُعيدُ البُراقَ.. لِيَسْرِيَّ حُرّاً

إلى إيلياء..

سلاماً إلى القدسِ،

غُصناً وطيراً،

وداراً وقوساً،

وشُرفةَ وردٍ، لعصفورةِ النارِ

إنْ خرجت للغِناء.

عُشّاق يبوس

هنا يبوسُ! هنا الأسوارُ والدّار

أو المآذن والنّاقوسُ والجار

عُشّاقُها أَلفُ نجمٍ حين تزهرُ في

شمسِ الشموسِ، وهذا النّجمُ سيّار

والأرضُ إنْ حملت ريحَ الصَّبَا، وبها

صوتُ الذين إلى أحلامهم ساروا

والرّوحُ في طينةِ الأحشاءِ مطهمةً

بالجمْر حتى سَرَت في ثوبها النّارُ

والغابةُ الُبِكْرِ، والآفاقُ سابحةٌ

كأَنَّها في المرايا خيلُ مَنْ ثاروا

والأغنياتُ، وخيطُ الصّبْحِ مُتَّقدٌ

على الأصابعِ، فالإشراقُ نوّارُ

ونبضُ قلبي على ألواحِ حالمةٍ

كأنَّ أنفاسَ هذا السحرِ أَسْحارُ

وكلُ رُمَّانةٍ في العيد ناثرةً

قلوبَها في صغارٍ حولها طاروا

والأَنبياءُ وأبناءُ الشّهيدِ ومَنْ

كانت لشريانهِ الدفّاقِ أَمطارُ

والقابعونَ وراءَ القيدِ إنْ نَدهَوا..

تسيلُ مِن فضّةِ الأصواتِ أَقمارُ

ومَنْ ينادي على خيماتِ مَنْ رحلت

وفي يديه، لهذا الدرّب، أشجارُ

والعاشقون؛ جميعُ المرُسلين إذا

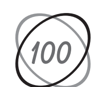
صلّوا على أرضها، فالنورُ أحجارُ

ومَنْ تكلّم في مهد السلام وقد

كانت له من يَباسِ النَّخلِ أثمارُ

ومَنْ يغنّي إذا المحرابُ شفّ به

فطافَ، من صوته، في الريحِ مِزْمارُ



وَمَنْ سينشدُ إذ مسّتْهُ ساحرةٌ

إنشادَ مَنْ ذُهِلوا في البيدِ أو داروا

والعاشقُ الفذُّ منْ يأتي على قَدَمٍ

وينعفُ الجسدَ الوهّاجَ زِنّارُ

وقد يذوقُ الرّدى مع مَنْ أطاح بهم

وكان يعرف أنّ الشَّهد صُبّارُ

وأوّل العاشقين المصطفى، وله

في كل شبرٍ بها حرفٌ وإبهارُ

اللّهُ في عَرْشهِ النوريّ يعشقُها

وحيث ينبضُ حول الماءِ سُمّارُ

ويعشقُ اللّهُ أحلامَ اليمامِ بها

تشدو، فتسطعُ في التلاّتِ أنوارُ

وأنْشَأَ الحقَّ حتى لا تكونَ هنا

كراهةٌ، ويعودَ الموتُ والثارُ

فالقدسُ أرضُ سلامِ العالَمين إذا

حلَّ الهديلُ بها فالقلبُ أطيار

وإنْ تمادت بـها الجدرانُ سادرةً

نحو المهاوي فإنَّ الكونَ ينـهارُ

فالقدسُ أقربُ شُبّاكٍ لخـالقِها

والسِرُّ، في رحلـةِ المعراجِ، أسْرارُ

والقُدْسُ وَحْيٌ مِن الـغيبِ الجليلِ إذا

قال النبيُّ، فَحِبرُ الوحـي مِدْرارُ

يبشّرُ المؤمنينَ القابضينَ على جمر الغَضا

أنَّ منْ يَمْضونَ أبرارُ

ولـيس من شِيَمِ الأحـرار، إنْ سُلِبَتْ

أنْ يخذلوا البيتَ، فالمِقدامُ كرّارُ

لا يدّعونَ بـأنَّ الوحشَ يقبضـها..

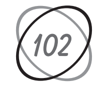
وأنَّ مَنْ بَدَّلوا الأيـامَ أشرارُ

أو يكتفونَ بتنديدٍ، إذا خَطبوا..

كأنَّ مَنْ سَيُعيدُ القُدْسَ خَوّارُ!

ويعلمونَ بـأنَّ القُدْسَ سيّدةٌ

تعودُ إنْ أُطْلِقَتْ بـالنـارِ أقْدارُ



أصيحُ: أين صلاحُ الدينِ يا عُمرٌ

وأين حطِينُ.. والتكبيرُ هَدّارُ

وأين خالدُ، والخيلُ التي ضَبحَت

على الشواطئِ، والمسلولُ بَتّارُ

وأين سعدٌ وجرّاحٌ... إذا هتفوا

ويثربٌ خلفَهم، والفتحُ جرّارُ

وأين مَنْ هاجروا لله خالصةً

بيعاتُهم لرسولِ الله، أطْهارُ

وخلّفوا كلَّ أمرٍ دون مَنْقَصَةٍ

كأنهم عند مَنْ جاؤوه أنصارُ

وأين منْ ركبوا الأنواءَ ظاهرةً

أرواحُهم لَكَأَنَّ الموتَ إظْهارُ

وطهّروا المسجدَ الأقصى، وكان لهم

يومٌ، من الكبرياءِ الثّر.. موّارُ

أولئك العاشقون الحقّ، قد صدقوا

وعاد، من دمهم، للقدس إكْبارُ

يا عاشقَ القُدْس! كلُّ العشقِ في دمنا

والعزُّ والمجدُ والإِيثارُ والغارُ

والغاصِبون ومَنْ داروا بهم زَمَناً

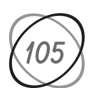
فالخوفُ عنوانُهم، والذلُّ والعارُ

والقدسُ معشوقةً تبقى، لمَنْ عشقوا

ولن تموتَ.. فتبكي أهلهَا الدارُ

أرض السماء

نارٌ على حَجَرِ النّبيّ،
وشهقةٌ من سورةِ الإسراء في بال المدينةِ،
وابتهالُ التينِ والزيتونِ في جبلِ المكبّرِ
والفضاء على ضياءِ السّورِ يعلو بالفضاء.
القدسُ أرضُ اللّهِ،
بيتُ الشمسِ،
ترتيلُ النجومِ،
وما تهامى من كلام الأنبياء.
فَلَها المؤذّنُ يغسلُ الآفاقَ،
قبلَ الفجرِ، حين تدبُّ أقدامُ
الذين يُرنّقونَ سقوفَها بسلالِهم،
يمشونَ نحوَ اللهِ فوق جباهِهِمْ وردُ الحياءْ.
والقدسُ خانُ الزيتِ،
قوسُ العطرِ
قنطرةُ الحريرِ،



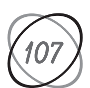
وسُكّرُ الأسواقِ،
بابُ الضوءِ،
شُبّاكُ الدوالي،
رعشةُ الألماسِ،
صوتُ العينِ،
والصبرُ المُعَتَّقُ
والرجاء.

***

القدسُ أقربُ ما تكونُ إلى الرسولِ؛
أتى إليها الشيخُ من صخرِ الجنوبِ،
مُوَحِّداً،
ومشى إليها المرسلون؛
من الأَبِ المحزون،
حتى مَنْ دَنا ورأى وصلّى،
والذين يُؤمّنون وراءَه؛
موسى ويحيى وابنُ مريمَ
والذي غنّى وأَوَّبتِ الجبالُ له ولوطٌ
والذي أنجاه ربُّ العَرْشِ والصّهْرُ القويُّ
ومَنْ دعا وأنابَ أو ألقى إليهِ السمْعَ

والنجّارُ والمنشورُ والجدُّ المغادرُ
والذي قتلوه غدراً
والوجيهُ
ومَنْ إذا نادى تُلبّيهِ السماء.
والقدسُ طفلتُنا التي قصّوا جدائلها
بأسئلة الضغائنِ والمكائدِ والحروبْ،
هُمْ غيَّروا ذَهبَ الشروقِ على مآذنِها،
فأدركها الغروبْ،
هُمْ هجّروا أطيارَها، من بَعْد أن هدّوا منابرَها
فَتاهت في الدروبْ،
هُمْ أبعدوها عن ملامحِ أهلِها
هم غرَّبوها عن مطالعِ قلبِها النبويِّ باسمِ السَّلْم
ساقوها إلى حضنِ الذي اغتصبَ الطفولةَ
والزنابقَ والهواء.
فالقدسُ لم تعدِ العروسَ
وزهرةَ المدُنِ الشريفةْ..
هيَ ذي تكابرُ تستريبُ وتستفيقُ على
أقانيمِ العماءْ.

****

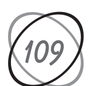


سقطت عن السَّرْجِ الهزيلِ،
ولم تكنْ في الدَّرْسِ
أكثرَ من مرورٍ باهتٍ
حولَ الصعودِ بليلةِ المعراجِ..
كانوا قد تناسَوا أُمَّها في الأَسْرِ،
واكتفتِ الصفوفُ بما تبقّى
من ضفائرِها على الأبوابِ..
هذي ليستِ القدسَ التي رفَّتْ
على أيقونةِ القسيسِ والشيخِ المجاورِ!
إنها حدْسُ الأماكنِ والأمومةِ والسَّرائرِ؛
من ضريحِ البحرِ حتى
مَغْطَسِ النَّهرِ المقدّسِ
أو ما نُسَميّه بيافا والجليلِ
وبيتَ لحمَ ووجهِ غزةَ والخليلِ
ورملِ صحراءِ الجنوبِ
وكرْملِ الموجِ المُطلّ على الفنارِ
وسورِ عكا والحقولِ
وأنفِ حيفا للعريشِ
ونارِ عيبالَ العنيدِ
وزنبقِ التلّاتِ في كَرْمِ الشهيدِ

إلى قُرنفلةِ البحيرةِ
والسنابلِ في المروجِ
وحيث يَسْكنُ رَبُّها السّريُّ؛
إنْ كانتْ يكُنْ
وإذا أتت يأتي..
وإنْ شاءت.. يشاءْ.

***

القُدس إنْ سقطت
ستسقطُ كلُ مِئْذَنةٍ وقَصْرٍ،
والممالكُ، في السواحلِ، وحَدَها
مَنْ يملكُ الطرقاتِ والآبارَ والأمرَ السواءَ،
وغيرُها أَمَةٌ وعبدٌ،
والقبائلُ ترفعُ الإذعانَ خوفاً...
إنهم سبعون ألفاً
مَنْ يَسُوقهم الصليبيون للموتِ المحتّمِ،
والمماليكُ، الذين أميرُهم قتَلَ الأميرَ،
سيسمعونَ،
وسوف يَدعونَ القتيلَ إلى الحوار،
ونبذِ أسبابِ العِداءْ!



فَهُنا تساوى الواقعيونَ القضاةُ
العالِمون بكلِّ أحوالِ الشعوبِ
القادةُ الأفذاذُ أصحابُ الكياسةِ والسياسةِ،
من أمينٍ أو وزيرٍ أو لواءْ،
وهنا تساوى هؤلاء، وفوقَهم مَنْ باعَ
أو مَنْ ضاعَ
مع مَنْ صار مسؤولاً بلا إذنٍ،
وأصبح ببّغاءْ..
فلتهتفوا للعدلِ،
عاش العدلُ في زمن النِّخاسة والرياء!

***

القُدسُ بابلُ قبل أن يأتي إليها السبيُ
أو من بَعْدِ أنْ جاء الغريبُ
وحَلَّ فيها سيّداً عبداً،
فَثَمةَ ألفُ لَوْنٍ
أو لسانٍ في الطريق،
ولستُ أَلمحُ أيَّ وجهٍ لي،
أنا في كل هذا الطينِ
والطيرِ المُحَلّقِ والنخيلِ

وفي الجدارِ وفي الحجارةِ والثمارِ

وفي الزجاجِ وفي الرداءِ

وفي الهواءِ وفي النداءِ،

وفي الجرارِ وفي السقوفِ

وفي الكفوفِ وفي الجفونِ وفي الصحونِ

وفي الدخانْ

أنـَا في الزمانِ وفي المكانْ

أنـَا في تفاصيلِ القناطرِ

والمعارجِ، والمساجدِ والمعابدِ والمياهِ

وفي الجباهِ وفي السرادقِ

والقواريرِ الشفيفةِ والشرابِ

وفي الكتابِ

وفي التوابلِ والسحابِ

وفي الظنونِ وفي السكونِ

وفي الحراكِ وفي النيازكِ والسّماكِ

وفي القريبِ

وفي المخبّأِ والظهورِ وفي العصورِ

وفي المحابرِ والمجامرِ والوجاقْ

أنَا في البراقْ

أنا في القديمِ وفي البدايةِ والنهايةِ



والوصايةِ والحكايةِ والروايةِ والكلامِ
وفي المنَامِ وفي الزحامِ
وفي الصباحِ وفي الظهيرةِ والمساءْ.
والقدسُ أولُ ما سيظهرُ
بعد طوفانِ السفينة،
كانت الأُممُ القديمةُ تَعبُد النيرانَ والأصنامَ
أو نجْمَ الظلامِ،
وترتجي مِن وحشها البريِّ
وَصْلاً للسلامِ،
لتبلغَ الربَّ المظَلَّلَ بالغمام
فكان أنْ رفعتْ يبوسُ صلاتَها
لله خالصةً
على سيفِ الدّعاء.

***

والقدسُ لم تعرفْ رياحَ التيهِ والعِجْلَ المُذَّهَبَ
والوصايا وهي تَحرقُ
أو تُقَلِّعُ أو تُهَدّم أو تُذَبّح
أو تبيدُ وتسبيحْ..
الُقدسُ لم تعرف سوى عَسَلِ الرسولِ

وشَهْدِ ما قال المسيحْ،
القُدسُ لم تولدْ من الحجرِ المموّهِ بالخرافةِ
حين كان الجنُّ والنملُ البسيطُ
وهدهدُ الإعْلامِ في التلِّ الفسيحْ،
القُدسُ كان بناؤها
بيدِ الملائكةِ الذين أتَوْا
إلى الأرضِ الجديدةِ،
يومَ آدمُ جاءها،
وبنَوْا هنا داراً له من قبل عادٍ أو ثمودٍ،
قبلَ إبراهيمَ أو إسحقَ والولدِ الذبيحْ..
القدسُ أوّل ما أقام اللهُ
في الدنيا،
وآخرُ ما سيبقى في سماواتِ البهاءْ.
يا أورَ سالمَ
يا قبابَ الوَجْدِ
في قلبي الجريحْ!
ها أنت وحْدَك
فوقَ جُثَّتكِ المُمزَّعةِ الرضيّةِ
بين جدرانِ الغُراب،
ودونَ أُمَّتكِ الذليلةِ في العراءْ.

فالشكرُ كلُّ الشكرِ للحفّارِ
والحانوتِ والتابوتِ والقُطنِ المنُقّى والغطاءْ،
والشكرُ كلُّ الشكرِ للأُممِ التي حملتْ
جنازتَها،
ولم تبخلْ علينا بالرثاءْ،
شُكراً لأُمّتِنا على هذا الغيابِ
وألفُ شكرٍ للسلامِ وللتفاوضِ
والذّهابِ إلى الهَباءْ.

***

قد قالَ جنديٌّ قديمٌ في سلاحِ الرَّصد:
جاءتنا بياناتٌ تفيدُ بأنهم لمحوهُ
خلفَ كنيسةِ اللّطرونِ،
في دُغْلِ اليمامْ!
وهناكَ لم نرَ ما يشُير بأنّ إنسيّاً أتى
أو نامَ! لكني،
ومن بابِ الإحاطةِ،
قد أمرتُ كلابنَا للبحثِ عنه،
فلم تجدْ أحداً،
فَعُدْنا من جديدٍ للوراءْ،

وحدَسْتُ في نفسي:
سأنظُر حيثُ أبلغني المُراقبُ،
فاستندتُ إلى حديدِ البُرجِ،
سلَّطتُ المجاهرَ نحوَه،
وبقيتُ حتى ساعةِ الفجرِ الأخيرةِ،
ثم كان هناك مَنْ يمشي
بطيئاً للأمامْ..
فهجستُ أنْ يرموا المربَّعَ بالرصاصِ،
فأطلقوا كلَّ المدافعِ والبنادقِ والسّهامِ،
وبعد أنْ راحَ الظلامُ،
ذهبتُ أبحثُ عن قتيلٍ أو جريحٍ أو نداءٍ، إنّما
لم ألقَ شيئاً!
غيرَ أنّي خِلْتُ خيطاً من دمٍ يمشي..
وتنقطعُ الدماءْ!
وبُعَيْدَ يوم جاءني خبرٌ
بأنَّ جنازةً في بلدةِ اللّطرونِ سارتْ،
والقتيلُ، أو الشهيدُ كما يقولُ الناسُ،
مجهولُ الهويةِ!
غيرَ أنّ الشيخَ قال:
اليومَ في عمواسَ مات أبو عبيدةَ عامرٌ



في دمعةِ العشرِ الأوائلِ من حزيرانِ الكئيبِ،
وكان يومَ الأربعاءْ.

***

وتقولُ سيّدةٌ تبيعُ الزعترَ البريَّ،
جاؤوا نحوَ ذاك الشارعِ المرصوفِ، نحوي..
فانتبهتُ، وقد حملتُ الفَرْشَ
قبلَ وصولِهِم،
وَبُعَيْد أنْ داسوه وابتهجوا، صرختُ..
فقال لي مَنْ صاحَ في وجهي:
لماذا تلبسين الثوبَ هذا!
إنه من عَهْد يوشعَ، فاخلعيهِ،
وإنْ أتيتِ به غداً
سيكونُ موتُك ها هنا؛
وأشار نحوَ الزعترِ المهروسِ
من تحتِ الحذاءْ.

***

وتقولُ سيدةٌ لجارتها: تعالَيْ
إنّ بيتيَ لم يُصَبْ
ويكونُ ثَمَةَ غُرفةٌ للزوجِ والأولادِ،

والأُخرى لكم..
لكأنَّ مَنْ قالت بَدَتْ
مثلَ التي تتوسّلُ الأُخرى
ويجرَحُها الحياء.

***

ويقولُ شيخٌ: أين هُم؟
فأقولُ: مَنْ؟
فيجيبُ: مَنْ باعوا البلادَ
وخلّفونا، ها هنا، في كربلاءْ.

***

وَيُوقِفُ الجنديُ حَمّالاً، ويسألُهُ:
لديك بطاقةٌ؟
فيردُّ بالإيجاب..
يسألُه: وما اسْمُكَ؟
قال: أحمدُ
وابنُ مَنْ؟
عيسى بن موسى
واسمُ أُمّكَ؟
إنها الخنساءُ

جَدُّكَ؟

قال: إبراهيمُ

بيتُك؟

عندَ أسوارِ الكنيسةِ

قُرْبَ بابِ الجامعِ العُمَرِيِّ، قُلْ

مَنْ جَدُّ جدِّك؟

إنّه عُوجٌ وكنعانٌ،

ووالِدُهُ عِنَاقُ ابنُ العماليقِ الجبابرةِ

الذين تقاطروا كالأرجوانِ على الزّهورِ،

فكانَ آذارُ الربيعِ وجِلوةُ الفَرَسِ

المُضَاءةِ بالغواءِ،

فأين تذهبُ؟

كي أضمَّ القُدسَ أحمِلَها على ظهري

رأيتُكَ قبلَ هذا اليوم؟

في كلِّ الدروبِ

وفي المفارقِ والحواجزِ والمنونِ

وفي الجنونِ

وفي الرصاصِ وفي الجنازةِ والقَصاصِ

وفي النعاسِ

وفي الكوابيسِ الثقيلةِ والوساوسِ والمدافنِ



والقنابلِ والشظايا والمراقصِ واللّهيبِ
وفي السواحلِ والنحيبِ
وفي السوادِ
وفي البلادِ وفي الملاحمِ والبيوتِ
وفي الملاجئِ والموانئِ والخواتمِ والخيامِ
وفي الظلامِ
وفي المرايا والخفايا والنوايا والعظامِ
وفي البداية والختامْ
فَأنا القوافلُ والمنازلُ والغمامْ
وأنا الحداءُ
أنا المُقَدَّرُ والقضاءْ.

***

وتقولُ قابلةُ العيادةِ:
كلُّ هذي الناسِ أولادي،
أنا قد جئتُهم في الحرّ
أو في القَرّ،
هاتانِ اليدانِ هُما اللّتانِ تُدَبّرانِ
لكلّ مولودٍ سبيلَ خُروجِهِ
من حمأةِ الدمِ والصّراخِ،

وكنتُ أولَّ مَنْ يُلامسُهم!

صغاري اليومَ قد كبروا!

ولكنّي، وليلةَ أعلنوا أن المدينةَ قد هَوَت،

لاحظتُ أنّ أَجنَّةَ الأحواضِ قد رجعتْ

علائقَ في البطونِ،

وأنّ ماءَ الرأسِ عادت للوراءْ!

وخشيتُ، أَعْلَمتُ الطبيبَ، وكانَ

في المذياعِ، يسمعُ آخرَ الأنباءِ..

قلتُ: هُمُ الأَجنّةُ، مَنْ تكوّرتِ البطونُ بهم

تلاشَوْا فجأةً، وتضاءَلَ الرحمُ الوسيعُ،

وَخَفَّتِ الآلامُ، واخْتَفَتِ النساءُ

فلم يُجِبْ..

بل قالَ، بعد أنِ استبانَ الأمرَ:

هُنَّ عواقرٌ

وغداً يفيضُ البرقُ

إنْ حَلَّ الشتاءْ!

***

ويقول عصفورٌ، يرفُّ جناحُهُ:

كان الوصولُ إلى ذُرى الجرسيّة البيضاءِ

أوّلَ ما أقومُ به صباحاً،
كي أقابلَ نجمةً سطعت على عُشّي
وأشكرَها،
وأمضي راجعاً فوق المراجيح التي
طارت على قمر النهارِ،
وأنتقي ما شئتُ من حَبٍّ تناثر
في الخلاءْ..
كم كنتُ، إنْ حُمَّ السُّعارُ
وَفَحّتِ الأفعى على الأعشاشِ
أو ثلجِ الظباءِ..
أَنوشُها، حتى تعودَ إلى
السَّعالي والعقاربِ والجِراءْ..
واليومَ يخذلُني الجناحْ
وأخافُ إنْ علمتْ تعودُ
وقد تكونُ أَتَتْ على سِرّ المدينةِ
والعيونِ الكستناءْ.

***

ويقول جنيٌّ:
بقيتُ ثلاثةً أو خمسةً



أو بعضَ ألفٍ، لستُ أذْكرُ..

كنتُ في الفانوس حتى

حَكَّني طفلٌ وأخرجني،

ولمّا راعَهُ ما شافَ.. خافَ،

فَطِرْتُ من ذاك المكان،

وحينَ أَشْرَقَتِ المدينةُ

تحت أنظاري انذَهلتُ!

وقلتُ أذهبُ للنبيِّ لكي يرى

ما قد رأيتُ،

فما وجدتُ له قصوراً أو ظهوراً في الزمانِ،

فأين مملكةُ الحكيمِ؟

وأين مَنْسَأَةُ الأوامرِ والمزاميرِ الرَّخاءِ؟

فيا مليكي يا سليمانُ الذي

مَلكَ الرياحَ ومنْطِقَ الطيْرِ العجيبَ

وكلَّ عفريتٍ يدوّمُ في الهواءْ..

هذا ابنُ آدم مَنْ أقام الُقبّةَ الحنَّاءَ

والسورَ المنيعْ

قد كان، رغم البربري، بأرضه صخراً

وزيتوناً وتاريخَ الربيعْ

هذا الفلسطينيُّ أقوى من جنودِكَ، يا سليمانُ القويُّ!



وليس يكسره جنونُ الأقوياءْ.
ويظلُّ نبضُ فؤادِه العربيِّ يزهرُ
في الدفاترِ
والحروفِ
وفي النقوشِ وفي الطباشيرِ الملّونةِ الصغيرةِ
والحقائبِ
في نشيدِ الروحِ والجَذْرِ المُجَلَّلِ واللّحاء.
***
ويقول مجنونٌ يبيعُ الريحَ:
لم ألقَ المدينةَ في المدينةِ،
سافَرَتْ في الناي،
أو في لُعبةِ التاريخِ، كُنّا
إنْ عشقنا لم نَنَم،
وإذا دخلنا النارَ نمْنا،
والهزيعُ بنفسجُ القُطْنِ الوثيرِ،
وإنْ صَحَوْنا لم يعد في الدَّنّ روحٌ،
كلُّ ما في الأمرِ؛
أن العمرَ بيتٌ من صغارٍ يلعبون،
ونسوةٌ تغلي حليبَ الليلِ



في العيدِ الكبير،
وعندما جاؤوا انكسرنا
مثلَ مئذنةٍ، وما عُدنا نرى
في قطعةِ الحلوى المرارةَ والرضا،
كُنّا ننامُ كما تنامُ الدارُ،
أو نبكي كما يبكي الجدارُ،
وتضحك الطرقاتُ فينا أو علينا،
إنّما كُنّا هنا،
مثلَ الجبالِ، على ذراعيها الدروبُ،
وعند غُرَّتها الغروبُ،
وفوقَها تاجُ الصنوبرِ والطيورِ،
وفي حواشيها البراكينُ الدماءُ،
ولم يكن في التينِ شوكٌ
أو حريقٌ،
كانت الدنيا مناديلاً
تصفّق للحجارةِ والبلادِ،
وما بلغْنا حكمةَ العشّاق حتى
مات في البلد المُولّهُ
فاض شِعراً وارتوى بالرمل.. هذا
أجملُ المرضى الذين

تناسخوا بجدائل النهر الغريقِ، وليته
ما كان إلاّ بعضَ مجنونٍ، ليبقى
في حديثِ الشامتينَ مساحةً للعَذْل..
هذا ما بدا، وله نعودُ غداً، لنبدأ
من جديدٍ في السؤال: متى
تُحرّرُنا البيوتُ
من الشهادةِ والجنازةِ والرثاء؟
ومَنْ سيفضحُ سرَّنا الغاوي
على حجر المساء،
وكيف نسرق حَبّةَ النهدين
من ثوبِ النداء،
وأين نزرعُ شمعةَ الدوريِّ
إنْ ضاق الفضاء،
وما الذي يبقى هنا
إنْ غاب مجنونُ الرياحِ
عن الشبابيكِ الهواء؟

***

وأرى الخليفةَ فوقَ ناقته يُكبّرُ،
عندما انبسطت له الأرضُ العليّةُ،



لم يشأ أنْ يَجْرَحَ الإنجيلَ،
صلّى قُرْبَهُ، وتعانقا في العُهدةِ العصماءِ
.. يا دربَ الصليبِ إليكَ ثوبي
غيمةً،
وخُذِ الهلالَ يمدَّ خَطْوَكَ بالضياءْ.

***

والقدسُ مريمُ إذْ تجيءُ بَحَمْلِها،
والكونُ مذبحةُ الجنينِ،
ودمعُ ثاكلةٍ تخبُّ به الخيولُ،
القدسُ وردةُ قلبِنا المذبوحِ
أندلسُ الحنين،
.. يغيبُ عن جنّاتِها حَبَقُ العزاء.

***

والقدسُ وَقْتَ العَصْرِ،
قبلَ النكبة الكبرى بأيام،
تُعيدُ وتستعيدُ حكايةَ الشهداء:
مَنْ عرجوا إلى الأسوارِ، أو
ساروا إلى الوديانِ،
كانوا ثُلَّةً لم يبلغوا الخمسين،

لكنَّ النفيرَ إلى الجهادِ
هو العَلاءُ..
وكان أنْ صَفّوا النعوشَ، وكانت
الحاراتُ تخرج من جنازتها
إلى زمنِ الفَنَاءْ.

***

القدس أبوابٌ إلى كلّ الجهاتِ السّتِ،
نافذتي الأخيرةُ للبهاء،
وللملائكِ يحملونَ العرشَ بالتسبيحِ
فوقَ الماءِ،
لا حدٌّ هنا ما بين مَنْ نادى،
و مَنْ سمع النداءْ.
القدسُ أغنيةُ الرخامِ،
من اليبوسيينَ، حتى آخرِ الشهداءِ،
في الأقصى،
الذين توّردت بهم العروقُ البيضُ،
وانسابوا على المنديلِ دمعاً،
من ورودِ الأُمّهاتِ،
وضوّعوا شمعَ الكنائسِ ساعةَ الترتيلِ



للأرضِ الحزينةِ والدماءْ.

***

والآن، ثمةَ إيليا أُخرى يحطُّ بها البرابرةُ الهوامُ

وتيتوسُ الهمجيُّ!

ثمةَ مَقْدسانِ وبَغْدادانِ،

فمَنْ لِثَالِثَةِ الأثافي، يا عواصمَ جوعِنا

ودموعِنا

ومعاقِلِ الجَهْلِ المُصَفَّدِ والشقاء؟

فهنا.. هنا الخُوذاتُ والغازُ الرصاصُ

الحاجزُ الدمويُّ

بركانُ المدافعِ

مركباتُ الموتِ

معتقلُ النساءِ،

الحافلاتُ،

وألف نعشٍ للحقولِ

وللخيولِ

وللمتاحف والمصاحف والجوامع

والصوامع والصغار الأبرياءْ.

وهنا.. هناك تَبادَلَ الجسرُ المعلّقُ والقبابُ

جنونَ ما اجترحوا من الذّبح المروّعِ
والمجازرِ والشّواء.
أنقولُ: قد سرقوا، هناك، حصانَنا الناريَّ
والسيفَ المذهّبَ،
كنزَ آشورَ القديمَ
وتاجَ مريمَ والخزائنَ والكتابْ،
نهبوا، هنا، ثوبَ الفُراتِ،
لُقى حمورابي، الصحائفَ
والطوائفَ والكهولة والشبابْ
نهبوا الأساورَ والمنابرَ،
برُدةَ الزهراءِ، أو
ما قد تبقّى للحواريين من خُبزِ العَشاءْ.
وهنا.. هناك تسلّقوا نايَ المُغنّي
والمُعلّقةَ الكحيلةَ
والغزالةَ
والذي عَشِقَ السيوفَ
لأنها لمعت على ثغرِ الجِواء.
وهنا.. هناك أبو حنيفةَ والعليُّ،
وزيدُ والطفلُ الخفيُّ،
أو الوليُّ ومَنْ توسّطَ والرضيُّ

هنا.. هناك الطَّفُّ والعَطَشُ المحاصَرُ
والمَحارِمُ والرحيلُ بلا عزاءْ.
وَهُنا.. هناك الأشعريُّ المالكيُّ
الحنبليُّ
الشافعيُّ
فَمَنْ يقولُ: أنا وأنتَ
ولا نرى حول الحصار سوى العواء؟
***
والقدسُ آخرُ ما تلفّظَت الأعالي،
فوقَ رايةِ أرضنا؛
هي سندسُ الزيتونِ
أجنحةُ الحَمامِ
ولمْعَةُ الشريانِ
أو كُحْلُ الصَّبيةِ
لم تُصِبْ من عمرها إلا البُكاءْ.
***
والقدسُ عينُ اللّهِ في الأرضِ الصغيرةِ،
أوّلُ الصلواتِ والآياتِ،
محرابُ البتولِ،

ونخلةُ الميلادِ،
معراجُ الأمينِ،
ومربطُ الفَرَسِ المُجَنَّحِ،
خُبزُنا البلديُّ،
زيتُ سراجِنا الكونيُّ،
أو رَقْصُ البلادِ،
وزفّةُ الأعراسِ في وَهَجِ الغناء.

***

جاؤوا إليها فاتحينَ مُسبّحينَ
وخلّفوا فيها الرواقَ
أو المُصلّى
أو خطوطَ النصرِ
أو تاجَ المُقَرْنَصَةِ المعقّدَ والقبابَ
أو السبيلَ أو المشافي والمدارسَ
والحصونَ
أو الأصابعَ فوقَ مرمرِها الشجيّ
أو القصورَ أو السجونَ
أو القلاعَ أو القبورَ
أو القصائدَ والملامحَ والعيونَ

وما يُسجّلُهُ الحجيجُ
من العجائبِ والطقوسِ
وما رأَوْا في الخانِ والقَصباتِ
من أثرِ الجنودِ،
وما يقولُ الناسُ أو ما يفعلونَ،
وما يبيعُ القادمونَ من النفائسِ والقلائدِ والنقودِ،
وكان أنْ حُرِقَتْ
وَزُلزِلت المدينةُ غيرَ مَحْرقَةٍ،
فماذا يصنعونْ؟
ولقد أعادوا مرّةً أخرى المدينةَ
مثلما كانت على كتفِ الثريّا،
أو كما تبدو الأميرةُ إيلياءْ.

***

والذئبُ جاء القدسَ
من غَبَشٍ سحيقٍ
من عيونِ الريحِ،
قال: أنا أجوعُ
لهذهِ الأرضِ المقدّسةِ المليئةِ
بالقفيرِ وبالحليبِ،

وسوف أبني هيكلي فيها..
ووحدي مَنْ يكونُ هُنا.. هُنا
فَأنا الذي أعطى الإلهُ أباه هذي الأرضَ
وحدي مَنْ سيبقى
والبدائيون مَنْ مَرّوا عليها
يرحلونَ
وإنْ أبَوْا، سيموتُ ما فيها لهم؛
من بقلةٍ أو نملةٍ
أو نبعِ ماءْ.
فَلْيرحلوا عنّا،
فإنّا لا نطيقُ لهم بيوتاً
أو مروراً أو بقاء.
وَلْيقطعوا حَبْلَ المشيمةِ في الصحارى،
نحن مَنْ يرثُ الخُطى
وقلائدَ التينِ المجفَّفِ
والخوابي والجِرارَ
وما يميسُ على السهوبِ من الشعيرِ
ومن قرونِ البامياءْ.
وأنا الذي ينفي الضحيةَ والمذابحَ،
وَحْدَنا مَنْ يملكُ الهولوكستَ والمنفى..

أنا الملكُ الوريثُ،
أُنقّحُ التوراةَ من حُبّ الخلائقِ
ملّتي، لا شيءَ للأغيارِ
إلاّ ما يُمكّنني الكمينُ من الرعاعِ،
أنا هنا المختارُ،
أَخْلُقُ ما أريدُ
بِرَنَّةِ التّبْرِ المُرابيَ/
والمؤامرةِ/ البغايا/ والخطايا والثراءْ.
وحدي لديّ دمي المميّزُ،
لي عناقيدُ المراعي، والأفاعي
بعضُ أُحجيتي
ولي حَسْمُ النهاياتِ السعيدةِ
والشعوبُ لها كوابيسُ العناء.

***

القدسُ واحدةٌ لنا،
ولها نشيدُ الجُرْحِ، والكوفيةُ السمراءُ،
والعيدُ البعيدُ، وصورةُ المقلاعِ
واللونُ الذي رفعَ الحنينَ
إلى المجازْ!

فهناك في المنفى هي العنوانُ
في الثوبِ المطرّزِ بالحكايا
والزغاريدِ النبيهةِ والخرائطِ والدفاعِ
عن المعاني، والمعلّقةِ التي فهقتْ
على الحيطانِ أو صدرِ الصَّبيّةِ،
في الهواتفِ والملاحفِ والمصاطبِ والحِساءْ.
وهنا، هي الرحمُ الخصيبُ، وما
تبقّى من حكايتنا، وما عقدوا عليه
من النوايا في الصلاةِ أو الممات،
أو الدفاعِ عنِ السلامِ أو الحِمامِ،
أو الذهابِ إلى النجَاءْ.
وهي الشرارةُ والترابُ أو الغمامةُ
والهواء، هي الهيولا، والقيامةُ،
والصّحاحُ من النّزول على النبيِّ
بعُزْلةِ الجبَلِ المُقدَّس
أو حِراء.
وهي التي ربطوا بها قلبي
وحفّوا نهدَها بالهِندِباءْ.
هي زوجتي، أُختي، وأمّي وابنتي
أبتي وعمّي، خالتي، أهلي

وجيراني وأفراحي وسلطانُ الإباءْ
هي آيتي، عِرضي، حياتي
أصدقائي الأوفياءُ، مدينتي
بيتي، غدي، سندي، عمادي، زهرتي، لغتي
دموعي، قصّتي، أمسي، وأحلامي
كتابي، دُرّتي، زمني، عيوني، شمعتي
وجعي، شفائي، نظرتي، صوتي
غطائي، نوْمتي، صحوي
وخطوي والدواءُ وصرختي،
أملي، جدودي، شهقتي الأولى
وروحي، نجمتي، شُهُبي، عُروشي
نخلتي، تفاحتي، قمحي، وقافلةُ الرّواءْ..
القدسُ أزمانٌ على زمنٍ طويلٍ،
ثم يأتي آخَرٌ.. حتى
تكونَ ذُرى ابنِ آدمَ في المدينةِ،
بعضُها يعلو على بعضٍ،
وأجْمَلُ ما يتوِّجُها السلامُ إذا
تخلّى الميّتونَ عنِ ادّعاءِ الادّعاءْ.
فهنا البهارُ وقهوةُ العربيِّ والآياتُ
والتاجُ المُرصّعُ بالسّناءْ.

وهُنا.. هُنا حريّةُ الإنسانِ

طُهْرُ الطهرِ، ترنيمُ التجليّ والخفاءْ.

فبأيِّ شمسٍ نستنيرُ

بأيِّ ماءٍ نستجيرُ

ومَنْ يُصدّقُ أنَّ قُدْسَ اللهِ

يَحْكُمها عبيدُ المومياء؟!

****

القدسُ أُنثى الكونِ تعرفُ طَيْشَها النسويَّ

في زمنِ الرخاءِ..

وتعرفُ الحنّاءَ ناريّاً على يدِها

إذا جاسوا الديارَ،

هنا، يكونُ صراخُها الوحشيُّ مكتوماً،

بِكُوزِ صنوبرٍ خلفَ النوافذِ،

فالجنودُ وربٌّ هذا الشمعدان

يفتّشونَ عن البراعمِ، والطريقُ

بِرَهْبَةِ الوثنيّ جَمَّدتِ القلوبَ،

وَحَلَّ صمتٌ ليس يكسرُه سوى

خطواتِهم في هدْأَةِ الليلِ البهيمِ،

ولا ترى غيرَ الظلالِ

على حديد البندقيّةِ.
ثم تَسْمَعُ زَّخةً هتكت ستارَ الرُّعبِ،
قَعْقَعةً ورشّاتٍ
وأصواتاً تنادي بعضَها...
ويعمُّ ضوءُ الطائراتِ..
وَيحْضُرونَ...
وكلُّ ما في الأَمْرِ:
أنَّ عَمُوْرَةً شَبَحاً تَصدَّتْ للجنودِ،
لها ملامحُ غُوْلةٍ، قالوا
بأنَّ بكاءَها المشروخَ يُنْذرُ بالجحيمِ
وجمرَ عينَيْها تمدَّدَ في الوجودِ،
ونابَها كالنَّصلِ واللَّهبِ الوقودِ،
.. وقيل: قد قتلوا أباها في الجرود،
وقيلَ: قد هَدَمتْ منازلَها السدودُ،
وقيلَ: قد سجنوا أخاها،
قيل: قد حرقوا سنابلَ شَعْرِها
وعلى الرماد أقام حارقُها البنودَ،
وقيل: هذي غُوْلَةُ الثأرِ التي
لا تستقرُّ ولا تنامُ..
وتأكلُ الأعداءَ، إنْ مَرّوا،

ولا تُبْقي سوى بعض العظامِ

وقيل: إن جاءتْ عواصِفُها

سَيُزْهرُ بَعْدَها ألَقُ الجلاءْ.

***

القدسُ أوّلُ قِبْلَةٍ أو قُبْلَةٍ،

والنهرُ يجري تحتها،

وينامُ في ذَهَبِ المصاحفِ

مثلَ طفلِ السَّرْوِ،

ثَمةَ ما يُضفضفُ فوقَ خَطِّ السورِ؛

هذا سيفُ يوسفَ أو صلاحِ الدين،

مَنْ شدَّ الرحالَ إلى الحرائرِ والكنائسِ والتكايا

كي يحررّها من الغرباء، هذي

رؤيةُ الصوفيِّ في ليلِ الثناء،

وهذه حلقاتُ أبناءِ المغاربةِ

الأفارقةِ

اليمانيةِ

الشراكسةِ

الهنودِ

الأولياءِ

وهذه بعضُ المقاماتِ التي
صعدوا بها،
والنقشبنديُّ الذي كشف المسافةَ
حلّ في نبعِ الصَّفَاء!
فلإيليا تأتي
البحارُ على دفوفِ الرَّحلِ،
والمضيافُ عاهلُها؛
يزيِّنُها عُروشاً للخليلِ وللسبيلِ وللفراءْ.
فهنا، إذا حفروا بأرضِ القدسِ
لن يجدوا سوى حاءٍ وباءٍ.
هيَ ليلةُ القَدْرِ الأثيرةُ،
ياسمينُ البرقِ،
أو صوتُ الإمامِ
إذا ترنَّم بالقيامِ والانحناءِ،
وطافَ بالجَمْعِ المَهيبِ على الأرائكِ
والملائكِ
في القيامةِ نبعُ أطيارٍ ترفُّ
على صدى الناقوسِ..
هذا كرنفالُ القدسِ،
مَوْقدُ نَحْلِها،



ورِهَامُ فضَّتِها على طِيبِ البقاء.

****

أبوابُها..

بابُ الخليل، يطلّ نحو القَسْطَلِ المنهوبِ/

البَقْعَةِ/ القَطَمُونِ/ يافا/ مَأمَنِ اللهِ/ المروجِ/

الطالبيّةِ والنخيلِ..

هناك عنّابُ الشرايين/ الصخورُ

ودمعةٌ تبكي الشقيقةَ

والشواهدَ والفداء.

بابُ الجديدِ الطفلُ في السّورِ العتيقِ،

وأصغرُ الأبناء

في أسطورةِ الحَجَر المُضاء.

بابُ النبيِّ داوودَ

سِحْرٌ مستطيلُ النورِ

هندسةُ الثغورِ إذا

تفتَّحتِ الظلالُ على الهواء.

بابُ المغاربةِ الذي أخذوه لـ «المبكى»

يجوحُ على تضاريسِ المدينةِ،

والسلالمُ لم تعُدْ ترنو

إلى جبلِ المُكبّر،
إنّه بابُ البُراقِ أو النبيّ،
وكلُّ هذا الحَفْرِ في قلبِ الوسائدِ
والسلاطينِ الملوكِ،
ونبعِ سلوانَ المضرّجِ بالدماء.
الأسباطُ؛
بابٌ سوفَ يُفضي للقناديل التي اشتعلتْ
على الزيتونِ في جبلِ الصفاء..
وثَمّةَ الجسدُ الذي يعلو
على جثُمانِه الطينيّ
في كَبدِ السماء.
العامودُ؛ هذا البابُ للبلدِ القديمةِ،
والمداخلِ والمحافلِ
نحو نَابُلُسَ الشكيمةِ،
مدخلُ السّوقِ الرخيمةِ والشآمِ..
وبابُ كلِّ سُراتنا للشمسِ،
مَنْ حَملَ الرسائلَ للبعيدِ،
ومَنْ إذا أعطى يتمُّ به العطاءْ.
وبابُنا الذهبيُّ،
رحمةُ ربِّنا،

وقَوَامُ هذا البرزخِ المضروبِ
في الدنيا،
ومَنْ ناجى وأيقنَ
أنَّهَ في حضرةِ الهادي،
وقد وصلَ الرجاءْ.
والساهره بابُ البريدِ،
ونرجسُ الريحِ الشماليِّ العنيدِ
وأوّلُ السَّهرِ/ الزواهر..
كلُّها ما اشتَقَّهُ الورديُّ
حتى يطلعَ العودُ الخرافيُّ الفتيُّ
على الفواصلِ..
إنّه بابُ الرشيدِ
وعِطرُ مَنْ عادتْ به روحُ الوفاء.
***
والقُدْسُ إرْطاسُ الفَراشِ،
وشامةُ البلدان،
والزغبُ الحرامُ،
وتلَّةُ النُسّاكِ والعُبّادِ
في صُوفِ الخِباء.

القُدْسُ ليمونُ الزوايا،

طفلةُ النارنجِ،

ليلةُ عيدِنا

وقد استباحوا يومَها القمرَ الوحيدَ،

وخلّفوها دونَ نورٍ أو كِساءْ.

يا آورَ سالمَ،

إيليا،

يا زهرةَ المدنِ الحبيبةِ

يا يبوسُ!

برغمِ أحزاني الجليلةِ والمواجعِ،

يا فضاءَ الله في هذا البلاءِ،

ويا بعيدةُ، رَغْمَ رُؤيتِها،

على حَدّ الوداعِ..

لنا اللقاءُ

لنا اللقاءُ

لنا اللقاءْ.

يا قُدْس

يا قُدْسُ لا تسألي إنْ غابَ أم حَضَرا
قد كان عشقاً سرى في القلب وانْهمرا
فأَشْعَلَ الأَرضَ حتى باتَ ظاهرُها
بَرْقاً يُضوّع موجَ البحرِ والشَّجرا
وصار باطنُها بُركانَ أغنيةٍ
يُجَنِّحُ الطيرَ والأنهارَ والحَجرا
فأَنتِ في حَمْأَة الشريانِ راهجةً
على نَجيعكِ حتى يَبْلُغَ الأَثَرا
وينحني فوقَ حنّاءِ التراب إذا
حَنَّ الدمُ الحُرُّ في أعطافها وَتَرا
وينشرُ النّورَ في ديجورِ عَتْمتِها
حتى تَظلَّ شموسَ الكونِ والقمَرا
يا قُدْسُ يا عُرسَ مَنْ ناجت يمامتُه
على الشبابيك عُمْراً نازفاً سَفرا

أراكِ في ثوبكِ الرُّمّانِ طالعةً

على القبابِ لهيباً غامراً صُوَرا

وكنتُ أَحْلمُ أنْ ألقاكِ، سيّدتي،

ورداً يُنادي، على غيماته، المَطَرا

فأنتِ أجملُ إنْ نادى الحصانُ على

أعرافِ مُهْرَته شوقاً وإنْ نَظَرا

وأنتِ يا قُدْسُ في النَّجمِ الذي سَكَبت

ماسَاتُهُ سُكَّراً للظبي إنْ سَكِرا

يا قلبَكِ الياسمين! اللهُ يعرفُه

ويعرفُ العينَ مَرْجاً والرُّموشَ ذُرى

والشَّعْرُ ليلةُ قَدْرٍ فاحَ إثْمدُها

على الجُروحِ.. ففاضَ الطّيبُ وانتثرا

فأَنْتِ يا قُدْسُ صَحْنُ الجَمْرِ إنْ بعثوا

خُرافةَ الوَعْدِ والثلجَ الذي كَثُرا

وأنتِ بُرْعُمنا الموعودُ في حُلُمٍ

نراه بُسْتاننَا الآتي.. وقد بَدَرا

وأنتِ أكملُ مَنْ في الكون من بَلَدٍ

وأنتِ أوفى كتابِ الناسِ إنْ سُطِرا

فكلُّ داليةٍ في البيتِ عاشـقةٌ
وكُلُّ قَطْرةِ ماءٍ تنجلي دُرَرَا
وكلُ ظِلٍّ على الحيـطان نَحْسَبُهُ
بَدْراً إذا طافَ في الأنحـاء أو خَطَرا
وكلُ ليمونةٍ في عُبّ خُضْرَتِها
تخالُها كوكباً بالغيم مُنْشَطرا
وكلُّ قنطرةٍ أكتافُ مَنْ نزلتْ
عليه آياتُه وَحْيَاً وإنْ جَهرَا
وكلُ مصطبةٍ، يمشي الرسولُ لها،
سَقْفُ السماءِ عُلُوّاً، حيثما ظَهَرا
وكلُ بابٍ منَ الفردوس مَدْخَلُه
يرنو إلى جَنَّةٍ تعدو به نَهَرا
وكلُ مئذنةٍ يصحو الفؤادُ إذا
تَرنّمت سَحَراً بالحُسْنِ إنْ سَحَرا
وكلُ أجراسها أعيادُ مَنْ جعلوا
صلاتَهم ليردّوا غَدْرَ مَنْ غَدَرا
وكلُ أمْلسَ في الجدرانِ ترفَعهُ
يدُ المدينةِ في وجه الردى جُدُرا

وكلُ طيرٍ شهابٌ من ندىً، وله
أنْ يحملَ الغارَ والراياتِ والخَبَرا
يا قُدْسُ يا اُمرأةَ الأَحلامِ لا تقفي
قُدّي قميصي نبيّاً كنتُ أَم بَشَرا
وَهيّئي لي جَمالَ المُلْكِ باذخةً
وَرَدّدي: هَيتَ لَكْ! ولتُكْملي النُذُرا
حتى نذوبَ معاً في شمعةٍ، فإذا
حُمَّ الظلامُ نكونُ الضوءَ والشَّرَرا
فإنْ أشاعوا حريقَ العارِ أو هدموا..
وَحَفَّروا قلبَها المفطورَ وانْكَسَرا
وعبَّأوها بزَقّومِ الجحيمِ كما
ساقوا إليها جُموعَ الموتِ والزُّمرا
وَبدّلوا لونَ عينيها وغُرَّتَها
وغيّروا الدربَ والأَسماءَ والسُّوَرا
وإنْ أقاموا لِفَصْلِ الروحِ مقْصَلةً
وباتَ صاحبُها في اللّحدِ أو أُسرا
وَهَجّروا أهلَهَا ذَبْحاً ومَسْبغةً
وظلّتِ الُقدسُ في ويلاتِها عُمُرا
لَسَوفَ نبقى هنا في القدس، ما بقيت..
وسوف نبقى قضاءَ اللّهِ والقَدَرا

قدسيّة

لكِ أُغنياتي في الهوى وحروفي
يا مَنْ ملكتِ مذاهبي ودفوفي
يا قُدْسُ! يا حقلَ السماءِ، ولا أرى
إلاّك تحملُ كَرْمتي وقُطوفي
لأصبّ في وَهَجِ البروقِ دماءها
ويعود نجمي من ظلام خسوفي
وأُديرُ كأسي فائضاً بنعيمه
وأَزيدُه عسلاً بكفّ ضيوفي.
أنا قِبْلةُ العشاق، أفتحُ معبدي
فَلْيدخلوا بيتي ونبضَ كهوفي
وليُكملوا سَعْياً طريقَ مَحبّتي
وليَسْجدوا وَلَهاً بأرضِ كفوفي
أنا شامةُ الأكوان، تلك مَهابَتي
وبها أُنافحُ عن شُموخِ أُنوفي

لا حاجةً لي بالخيول بساحتي
فهناك فوق الفَرْقَدين سيوفي
وليَ الجلالةُ فالشموسُ بِغُرَّتي
ونجومُ ثوبي ترتَقي برفوفي
هي فرحتي بالعائدين لِقُبَّتي
وبها، بلا عدد، نعيمُ صُنوفي
وأقول؛ يا كلَّ الملائكةِ أنظروا
تسبيحَ مملكتي وبَوْحَ أُلوفي
هذي صروفُ الدّهرِ، لا كانت إذا
بَعَثتْ جُنوني أو جَحيمَ صروفي
لا حدّ للبركانِ يمضي صاعِداً
لِيُقيمَ فوقَ الآيتينِ سقوفي
فهناكَ بيتي، والدروبُ حدائِقٌ
في الغيمِ، تَذْرعُ شاطئي وصفوفي
وهناك، حيثُ القُدْسُ، أُعلِنُ جنّتي
فإليكِ يا دنيا الفناءِ عزوفي



مقابسات للقدس

نصوص المدينة

القـدس المتوكـل طه

إسمنت الآلهة

بعد أن برأت جروحه التي أثخنته في حطين، وصل متأخراً إلى المسجد المغسول بماء الورد ودمع الشكر للحميد، فبكى لأنّ اللحظة فاتته إلى حدّ ما!

ولمّا جمعوا أمرهم لِدَهْم الممالك اللاتينية لتسقط بأيديهم مثل الثمار الناضجة، كان على فرسه كالغرّة البيضاء، فخاض وتقدّم، وحمل واحتمل، ونزف وعرف، وشرب الترابُ دمَه حتى النهاية، فحملوه إلى هناك، ودفنوه بجروحه وعتاده وعجاجه وريحه الزكيّ النافذ الذي عبق حتى حطّ الطير والفَراش على أغصان قَبْرِه، فكيف لا تفرد الفراشاتُ أجنحتَها للذود عن الحيّ المدفون.

***

تهبط من القدس غرباً باتجاه يافا، على طريق باب الواد، قبل المنعطف القديم المؤدي إلى قرى زكريا وبيت جبرين والفالوجة، وقبل أن تصبح هذه القرى مستوطنات بأسماء وشوارع خلقت جغرافيا جديدة طردت التاريخ القديم. وعلى اليمين، وقبل



أن تغادر آخر بيوتات القدس الغربية مباشرة، ومع بداية المنحدر الشديد، ترى جبلاً تغطّيه أشجارُ الأحراش المحتشدة التي كسته فروة خضراء، حتى لا تتبيّن من تضاريس الجبل شيئاً!

هناك على رأس الجبل المُسمّى "جبل سيدنا علي"، وهو غير "قرية سيدنا علي" الواقعة على البحر شمال يافا، يقبع قبر قديم ما زال يحتفظ بشاهديه وحجارته المصطفّة على شكل مستطيل بائن ومحدد. ويبدو أن سلطات الاحتلال أرادت أن تشقّ طريقاً يقطع القبر، فأحضرت الجرافة لإزالته باعتباره قبر أحد "الأغيار" العرب أو المسلمين!

اقتربت الجرّافة بفمها المسنّن الفولاذي العريض، ومشت هادرة بثقة الحديد لإزالته، غير أن الجرّافة تعطّلت فجأةً، فأحضروا مَنْ يصلحها ليكتشف أنها بكامل جاهزيتها، فحاول سائق آخر أن يتقدم بها مرّةً ثانية فتكسرت أسنانها ومخالبها المشرعة! أحضروا جرّافة ثانية، فأُصيب سائقها بنوبة قلبية، وجاء سائق آخر فانقلبت الجرّافة، وأحضروا بواجر فولاذية محمولة على

ذراع حفّارة ضخمة، فتكسّرت وتحطّمت كأنها أسنان الحليب! تشاءم القوم من هذا القبر، واهتدوا إلى أن يزرعوا الديناميت،

ففعلوا، وانفجرت أصابع الديناميت دون أن يَحدُث ما ينبغي! كأنها ألعاب أطفال صوتية!

وسمع بما حدث بعض المستوطنين، فحضر حشد منهم وهم الذين يكرهون الأرض التي حملت، يوماً ما، عربياً على ظهرها، وأقسموا أغلظ الأيمان بالتوراة والتلمود وكُتب الأنبياء والمشكاة وبملوك إسرائيل أنهم سيذرّون القبر في الهواء، فأعملوا معاولهم، وما إن بدأوا حتى هاجمتهم أسرابٌ من الدَّبْر (الأدبُر أو الدُّبور) والنحل اللاسع، ففرّوا هاربين.

وكرروا التجربة ببواجر محمولة بروافع عَنْ بعد، وراحوا ينبشون سطح القبر، وقبل أن يخدشوه التفّت أفعى عظيمة على ساق أحدهم، فولّوا هاربين!

... وما زال سيدنا علي نائماً في قبره، غير عابئ بكل المُخططات التي تسعى لإيقاظه، والتي كان آخرها أن المُشرفين على شقّ الطريق قد قرروا أن يقصفوا القبر بطائرة "إف ١٦" ليحدثوا حفرة كبيرة مكان القبر.. الذي يُفترض أن تتطاير حجارته وأشلاؤه.



جاء في صحافة أمس أن طائرة حربية قصفت مجموعة عسكرية



حاولت العبور من القدس إلى يافا عن طريق مفرق بيت شيمش
"بيت جبرين"، غير أن المجموعة هربت واختبأت في مقبرة قريبة، ما دفع الطائرة إلى أنْ تُلقي حمولتها حيث يختبئون.

صلاة الجماعة

قرنفلة المصاطب الفوّاحة تحت قبّة البرتقال تتّسع لأبناء الأنبياء الذين يحرسون قلعة السلام والقلوب، ولها أن تبدّل ثوبها الطفل من اللبن إلى العندم حتى ينتهي الغروب بعنادٍ أشدّ من عناد الواهم، ولها أن تقيم صلاتها الفذّة حتى تكون الوردة بركاناً من حمم الجلّنارة العارمة، ولها بالنداء الخفيّ استدراج طيور بدر الأولى ليعودوا إلى أرض تليق بهم، وينزلوا إليها كل نهار وليلة قَدْرٍ ومسيرةٍ تطفو فوقها النعوش الطائرة.

***

أبو سَلَمة خفيف الظل، ذو غمازتين حلوتين، واثق كل الثقة من أنّ للبيت ربّاً يحميه. فما إن يتحادث الرجال عن الشائعات التي تقول بأن اليهود سيقومون باحتلال ما تبقّى من القدس، حتى يدير ظهره لهم، ويقول جملته البيضاء في وجه كلامهم



الأسود، ومفادها: إن للحَرم ربّاً يحميه! أما في يوم الخامس من حزيران في ذلك العام المشؤوم ١٩٦٧، فقد هُدمت قناعة الرجل عندما سمع جنوداً يرطنون بلغة غريبة تختلط مع قعقعة السلاح وأسماء لم يعهدها؟ ففتح أبو سلمة الشباك، ونظر إلى السماء، وقال: لماذا تحرجني؟ ماذا سيقول الناس عني؟

***

بعد شهور رأى الناس أبا سلمة يذهب عند أذان المغرب، ويقف بين شواهد القبور، في مقبرة الرحمة شرق البلدة القديمة، وحده، ثم يُقيم الصلاة وحده، أيضاً، ويقف إماماً وينظر يمينه ويساره ويقول: استقيموا إلى الصلاة يرحمكم الله، استووا واعتدلوا أثابنا وأثابكم الله، ويصلّي كأنَّ وراءه مُصلّين! وكم كان استغراب مَنْ رآه يصلّي إماماً في جماعةٍ وهو وحدَه ليس إلاّ.

وتكررت صلاة أبي سلمة وإمامته في الناس غير المرئيين، وكان ذلك كل أسبوع تقريباً! وصادف أن أبا سلمة كلّما قام بصلاته تلك وقعت عملية فدائية؛ تفجير هنا وقنبلة

هناك، ورصاص هنا وكمين هناك، وراح الناس يربطون بين إمامة أبي سلمة في المقبَرة والعملية البطولية التي ستقع بعدها بساعات!! وذُهل أهل المدينة غير مصدِّقين تلك العلاقة الحقيقية والمبهمة، والرابط الذهبي بين الصلاة والجهاد!

ووصل الخبر إلى المخابرات الاحتلالية، فقامت باعتقال أبي سلمة، وأخضعته لتحقيق مكثف وشرس وطويل، غير أنها خرجت خالية الوفاض، ولم تتمكن من استخراج حرف واحد من فم أبي سلمة، فوضعته في زنزانته وحيداً مُنعزلاً .. وراحت تراقبه!

كانت المخابرات قد وضعت عدسة كاميرا تراقب أبي سلمة ليلاً ونهاراً، وتعدّ عليه أنفاسه، وتراقب صلواته ودعواته ونومه وقضاء حاجته! وأخيراً، لاحظوا أن أبا سلمة قام ووسّع المكان الضيق في زنزانته، ونفخ غبارها ومسحه بيده، ووقف في زاوية الزنزانة وكبّر وأقام الصلاة، ونظر خلفه يميناً ويساراً وقال: استقيموا إلى الصلاة يرحمنا

ويرحمكم الله، استووا واعتدلوا أثابنا وأثابكم الله، وراح يُصلّي جهراً صلاة المغرب كأنّ أسراباً خلفه تؤمّن على ما يقوله من كتاب الله العظيم، وفي اليوم التالي كانت عملية فدائية قد خسفت تجمعاً لجنود الاحتلال! فأعادوا أبا سلمة إلى التحقيق، ولكن دون جدوى!

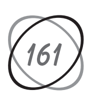
البوابة

ثمة متسع للكلام. ولا بُدّ من رقبة الديك حتى يظل قادراً على الصياح، ولا بُدّ من سكين المتنبئ حتى يشخب دم الطير على خدّها، ليعود بكامل ألوانه المزركشة بعد أن يرقص بقشعريرته، ويلف ويدور حول نفسه ذبيحاً طازجاً معفّراً بإكليله الأحمر المنعوف الساخن.

ولا بُدّ من تلك الهّزة العميقة التي تنشر برقها المتشعّب في الأوصال عند كل فجيعة أو ذكرى، أو جَمال يبطش، أو دمعة رجراجة كاوية، عندها تَحس أن أحشاءك تغوص بعيداً، كأنك على عتبة التحوّل إلى كينونة أخرى.

ولا بُدّ من عافية الصراخ والبكاء والضحك المجلجل والشبق، والذهاب إلى آخر الموجة، أو إلى كهف الغابة المسحور.

ولا بُدّ من عَرق الخطيئة ونَهم اللذّة والشذوذ، حتى يكون للحسرة طعمها الجليل، ولا بُدّ من السجود العميق والصوم والتمسّح بأثواب النور، حتى يخفّ القلب ويجنّح مع النجمة اليتيمة الواعدة. باختصار، لا بُدّ من كل شيء حتى نسحب أوراق الجنون من الوردة الريّانة المحتشدة بالرقّة والشهد والرهام الرقراق.



وعليه، لا بُدّ من إدراك البوابة العصماء المنتصبة، على صدئها، منذ عشرات العقود، نمّر عنها كأنها قضاء فائت أو قدر ثابت، دون أن يسأل أحد عمّا خلفها، أو مَنْ أنشأها، أو معنى وجودها، وربما لم يجترئ أحدٌ على سبر غورها منذ قيامها، على اعتبار أن السؤال عن وجود جبل أو نهر أو صخرة هو ضرب من السذاجة والغباء والجنون! لكنها ليست جبلاً أو تلاً، إنها بوابة خشبيه عملاقة، تقف بين عمودين حجريين، وتحت قنطرة مقوّسة حجرية، وسط ساحة البلدة، هكذا كأنها كانت بوابة أحد البيوت أو الخانات أو المورستانات أو الجوامع، وجهها مثل قفاها؛ خشب سميك مثبّت بمسامير حديدية غليظة مدقوقة الرأس. والعجيب أنه لا ظلّ لهذه البوابة، كأنها تقف في اللامكان، أو كأن ظّلاً عملاقاً شاسعاً يغطّي الساحة المظللة بكائن لم ندركه بعد. والأغرب هو أن البوابة دون أُكرة أو يد تفتحها بها دفعاً أو سحباً، فهي، كما هو ظاهر، لوحات متّصلة ومركّبة على زوايا ناتئة ومشدودة بسيور حديدية رقيقة، خالطها الصدأ، لكنها لم تفقد حدّتها أو استواءها المالس.

وإذا كانت العواطف تُضْعِف القوة، فلا بُدّ من الحزم والتجرّد التام حتى أفكّ لغز هذه البوابة التي لا يحطّ عليها طائر، ولا يتكيء عليها واقف، حتى المطرُ الذي يصيب كل شيء لا ينزل عليها، كأنه يتحاشى السقوط فوقها. وربما لم يصدف أن اصطدم بها سائر، حتى ظلّت كما تبدو متماسكة سليمة

لم يفختها حجر، ولم يخدشها إظفر أو سِنان. ومن المؤكد أنّ أحداً لم يتبأر أو يدقّق في تلك الرسوم والأشكال والحروف المحفورة، بدقة بالغة، على صفحة القوس الحجري، ولم يفسّر أحد تلك المقرنصات البادية أعلى العمودين الحجريين المصقولين بنعومة وأناقة ودقّة تدلل على أن البوابة أقيمت في عصر باذخ متقدم، لتكون نجمة الباني الذي سيتبعها أو يدفع الناس للانطلاق منها أو نحوها، ولكن، لماذا ومتى وكيف ومن أين؟ لا أحد يدري! كما أنّ الناس تهيّبوا، على ما يبدو، من أن يوقدوا ناراً بالقرب من البوابة، ولم يجازف واحد بأن ينطح البوابة بعارضة فولاذية أو خشبية أو بحجر ضخم، وآثر الجميعُ أن يمرّ عنها أو بالقرب منها باحترام وهدوء وسلام. وظلّت البوابة على هذه الحالة، حتى يوم أمسٍ.

***

استيقظ الناس فلم يجدوا البوابة ولا المصطبة الحجرية التي كانت تقف عليها برسوخ! كان كل ما يظهر تراباً مستوياً، هو امتداد الأرض التي شقّ وسطها المشاةُ طريقهم، حتى إذا وصلوا البوابة داروا نصف دائرة ليواصلوا الطريق. أما الآن، فلا بوابة ولا أعمدة أو أقواس، ثمة فراغ كامل، يمكن معه أن يظل السائر ماشياً دون دوران، وللتراب أن يتلبّد تحت أقدام الذارعين ذهاباً وإياباً ذلك الطريق الجديد.

وربما كان متوقعاً أن يجترح الناسُ غير تفسير، ويهجسوا



بغير فكرة تبرر اختفاء البوابة! فاختلفوا وتجادلوا وذهب كل منهم إلى سبب يراه وجيهاً أو كافياً لأن يزيل تلك البوابة ويمحو آثارها. فمنهم مَنْ قال إن اختفاءها إنذار من السماء ليكفّ المسرفون عن الفحشاء والمنكر، ومنهم مَنْ أشار إلى إمكانية قيام القرية المعادية المجاورة بسرقتها ليلاً بخفّةٍ تستطيعها! ومنهم مَنْ أكّد أن الطبيعة قادرة على إحداث الكثير من الظواهر، وأن الإنسان لم يدركها جميعها، وبالتالي فإن اختفاء البوابة يجب أن يقودنا إلى البحث عن الظواهر الطبيعية غير المُدْرَكَة، ومنهم مَنْ همس قائلاً إن الحاكم أخذها ليجعلها باباً لأحد قصوره الكثيرة المتخفّية في الغابات ووراء الجبال، ومنهم مَنْ أوضح أن طيراً هائلاً التقط البوابة بمنقاره الضخم وراح بها في الفضاء، ومنهم مَنْ قال: لم تكن هناك بوابة أصلاً، عن ماذا تتحّدثون؟!

.. وخفت صوت الناس، وانشغلوا، يوماً بعد يوم، عن ذكر البوابة، حتى لم يعد يذكرها أحد سوى الذين أطلقوا اسم "البوابة" على الطريق الذي يقطعها، دون أن يتوقف ذاكر اسمها عند أصلها أو قصة اختفائها.

ونسي الجميع البوابة وأمرها. ومرّت الشهور والأيام، وبعد عقدين أو يزيد، لاحظ أحدُ المعلمين أن تلميذاً صغيراً يرسم بوابة على كرّاسته، وتكاد الرسمة تكون صورة فوتوغرافية عن البوابة التي اختفت.

جهاز الجدّة

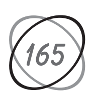
استيقظت الجمرة، وخرّت بشررها القادح، وسقطت في قعر القلب. وحضرت الشهوة الناغرة تشعّ من تحت الجسد، فأشرقت، وتعرّت، وأعجبها ما تكوّر أو انحفر، وأمتعها تمسيد النار على الماء البارد.

وشيئاً فشيئاً صرخت أصابعها وسالت، وتناثرت أهواؤها وغامت، وخمشت الهواء واقشعرّت، وكانت بأصابعها تحوّم على سواحل الرعب وحافة النهايات.

وربما لم تدرك، من قبل، أن ثمة حداثة في التاريخ، فقد كانت جدّة جدّتها تقضم الفراغ، وتزوغ في بئر الذروة.

***

لم تتغيّر هذه المرآة منذ قرن تقريباً، كانت هي والنمليّة والصندوق المرصّع بنجوم وأشرطة النحاس جهاز الجدّة، أُمِّ والد هذه البنت التي احتلت هذه الغرفة، وقد أخذت المرآة مساحة الجدار الموازي لبوابتها، وتنتصب على بعد شبرين



من السرير الجديد الذي أحضروه لهذه الفتاة، التي أعجبتها المرآة بصفائها واتساعها ووضوح صورتها.

تضجر البنت، وتلقي الكتاب على السرير، وتنظر من الشباك، وتزداد مللاً، فالأشياء كما هي، والمشاهد لا تبرح أماكنها، فتنظر إلى المرآة وترى قوامَها الفارع، فتُعجب بجسدها، فتخلع ثوبها وما تحت الثوب، حتى تقف كما ولدتها أمها أمام صفحة الزئبق الرائقة، وتتحسس مفاتنها، وتحضن بكفّها الرّمان والمدمع الساخن، وتذرع بيدها ببطءٍ على خصرها وصولاً إلى ساقها، وترتخي على سريرها غارقةً في رهام العَرَق الدافئ.

يا إلهي، لمَنْ سيكون هذا البلور الإلهي؟! ومَن سيصهره تحت فكّيه، ويعصر أعنابه في كؤوسه المترعة؟ لعلها كانت تنتظر الفتى النسر، أو الحصان المسحور، أو لعلها تنادي صاحب السيف الراعد الذي يبحث عن الفتاة المطرّزة التي وصفتها له العرّافة، لأنها ستكون سيدة القصر المُضاء بالأقمار الثلاثة، والمحروس بالجواد الكميت.

***

تستيقظ الفتاة في هدأة الليل المُطبق، فترى صوراً تتحركُ على سطح المرآة، وتحدّق فترى المرآة تعود تدريجياً لعرض

ما انطبع على وجهها.. كأنها تُقلّب صفحاتها المطوية تباعاً.

تتجمّد في مكانها، وعيناها معلقتان على المرآة التي تتذكّر كل أولئك الذين وقفوا أمامها، وتمرّ الصور سريعةً خاطفةً.. كأنها كاميرا تعيد بشرائطها كل ما صوّرته منذ مئة عام تقريباً.

لقد رأت الفتاة كل ما يُذهل من أفعال وأحداث، خصوصاً تلك اللحظات الحميمة التي كانت تعجّ بها الغرفة بين الأب والأم أو الجدّ والجدّة، وتلك الحماقات اللذيذة التي كانت تقترفها عمّتها أو أمّها، وتلك الغرائب التي فعلتها الوجوه والأجساد التي وقفت أو مرّت أمام هذه المرآة!

ضحكت من تلك الصورة التي رأت فيها والديْها أو جدّها وجدّتها، ولم تستطع أن تستوعب ذلك الفارق الهائل بين الوَلْدَنَة والشقاوة والخفّة التي أظهرها أبوها وبين تلك المهابة التي تحيطه كالهالة الثابتة!!

وعمّتها! آهِ يا عمّتي النزقة، وآه يا جدّي الوَلِه الصبي المتخلِّع!!

... وفجأة رأت فتاةً تتعرّى ببطء شديد، ويبدو أن هذه الصورة هي أول ما رأته المرآة!! وحينما دقّقت النظر في ملامح تلك الصبية الممشوقة الممتلئة، رأت أن لها ملامحها.. كأنها هي بلحمها وشحمها.





استيقظ أهل البيت على صوت ارتطام حاد، فهرعوا مسرعين مفزوعين إلى غرفة البنت، فوجدوا المرآة قد تحطّمت بفعل المزهرية التي ألقتها الفتاة عليها، فتشظّت وانهارت!

ضحك أبوها، وأسرّت أمُّها ضحكتَها، وطلبا من ابنتهما أن تعود إلى نومها.

أم حسن، اسم للقدس

وصل الصوت إلى الطرف الآخر عبر الهاتف المحمول المُهرَّب سرّاً من تحت عيون السجّانين.

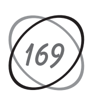
قال حسن: عظم الله أجرك.. لقد ماتت الحاجة ..أخي عمر.. ماتت الوالدة .. شدّ حيلك

***

صراخ مكتوم ينفجر وراء الخرسانة المتجهّمة، فتطير قلعة السجن، وتتفلّع الجدران، ويتشقّق السقف، ويتعرّى القيد على ذراعي الغضب الغولي الذي يفتّت الكلبشات الحديد، ولم يتهاطل الدمع سخياً خشناً على وجه السجين، بل حمحمات ألف حصان ناري يتفلّت من جسد عمر لتشقّ العتمة الصلدة.

ربما تنهنه وانطوى، وسمح لعينيه لتذرفا زهر الحزن المخضلّ بالفجيعة، وربما جاح وناح ولفّت به أرض الرطوبة والبرودة.

يمدّ يده لقضبان الزنزانة، فهي الوحيدة التي شهدت الموقف معه، ومن واجبها أن تقدّم له العزاء .. وقد فعلت.



ولرامز العايدي، الفلسطيني الذي اعتقل وهو قادم من لبنان الثورة في دورية إلى الوطن المحتل، وصارت أم حسن أُمَّهُ بالتبنّي، أن يدلح كل مياه رأسه الموجوع المليء بذكريات تلك المرأة ،التي لم يعرفها من قبل، والتي انتصبت أمامه وقالت له: أنت ولدي منذ اليوم وأنا أمّك.. حتى تتحرر. ولمحمد ابن مخيمات الأردن الذي وجد فيها والدته الباكية تحت زنك مخيم الوحدات، ولم تتمكن من رؤيته في ملابس السجن الكابية، وقالت له أم حسن يا ولدي أنا أمُّك التي لن تبكي، لتخرج وتعود ثانية إلى عروسك المنهوبة.. لمحمد، الآن، أن يضع رأسه بين كفّيه ويشهق بماء النار. وللقدس أم الرايات والأسوار والنايات والشجر والشرفات وأكاليل الدم الحرّ، وسيِّدة البرق والأغاني والهتاف العنيف في وجه الغزاة، ووالدة الأقواس والزفّات الساخنة والعيون النافذة وشبابيك الصلاة... للقدس الثائرة الحائرة، المجبورة المكسورة، الهادرة النادرة، الجديرة بالشهداء وأمّهات المواقد والسكّر المحترق على الطرقات، لهذه المدينة العاصمة القاصمة، الصابرة المثابرة، المغدورة من إخوتها الثملين على الجفنة الباردة، ولهذه البيوت والطرقات والحجارة الأقمار.. أن تطوي ثنيات قلبها على أم حسن، وتمجّها مثل زهرة الجمر، وتنفثها نيازك تتناثر في سماء أم المدائن الزاهرة الأنيقة الشقراء، العروس التي لم تجد لها ندّاً من الرجال سوى أولادها، الذين يحملونها على أكتفاهم جدائل عاصفة،

وأعراف أسطورة فذّة، فوق صدورهم العارية، في مسيرتهم الحاسمة نحو الخلاص.

استشهدت أم حسن، وابنها المناضل الجسور عمر شلبي في زنازين المجرمين ومعه ولده إياد، ليعلم القاصي والداني أن أهل المدينة العاصمة إما في السجون وإما في الرباط وإما في الاعتصام وإما في مقبرة الرحمة أو اليوسفية.

إذن، من حقّي أن أبكي أمّي أم حسن نيابة عن أخي عمر، ومن حق ولدي أن يجهش على قبر جدّته ويبلله بدمعة كاوية.

وللقدس أن تجد نبعاً جديداً في جسدها يمدّها بما يليق من ماء يصلح للبكاء، وَلَهَاً على لحظة واجبة الوجود، يكون فيها الأسير في حضرة أمه الملفّعة، والذاهبة إلى الأبدية الغائمة.

وأم حسن، الشهيدة بامتياز، لم يحتمل قلبها ما احتشد من أسى وغضب وأسف، على ما يجري في القدس، وخاصة في فضاء المسجد الأقصى، فلم يحتمل ما رأى.. فانفجر بين ضلوعها... فماتت.

اليوم، تنخلع زيتونة من مصاطب قبة الصخرة، واليوم، وبعد أن صلّت كل القدس عليها داخل ثاني المسجدين، انتبهوا أن النارنج وأشجار الحرم كانت تؤمِّن وتنحني وتبكي معهم على رفيقتهم أم حسن.



ولحيّ الواد العميق، أخدود الشمس والشهد والصهيل، وأزرار الكرز الوهاجة، ومهبط الباعة بحمولة الفجر والندى،وشقحة القمر ..أن يرفع ملصق الشهيدة أم حسن، ليلهث طفل بحقيبته الملوّنة بالحصى والأعلام، على رصيف الممرّ العابق بالقرون والقرنفل، وأمام ناظرهِ أيقونة الأرض بملامحها السمسمية، وثوبها المريميّ الموشوم بعروق الزهراء الذهبية.

وللقدس، كتاب السماء وصحن الربيع ووشاح الشمس وبسملة التراب وسلالم الأنبياء ودرج النجوم والحبق والبلور وقناديل الأندلس وجراح الناي وبخار الكوانين الشهية والزعفران، وياقوتة الصباح وغزالة التاريخ، والتكايا والزوايا وحيطان الأزقة والحارات..للقدس أم الأناشيد ورقصات الحليب في الليل، وسحاب الوسائد وأحلام المراجيح والأعياد... لها أن تقبل قُبلتي على اليد التي مسّدت حجارة البلدة القديمة وربّت الأبواب وعانقت الأعمدة والشواهد وتناسخت غيماً في كل دار .

ولإلياء اليتيمة، وليبوس العظيمة، لقابلة الصنوبر والزيتون والشجن أن تفرش حنّون تلالها من المُكبّر حتى المآذن والجرسيّات، طريقاً للبُراق، ليعود، ثانيةً، يحمل أم حسن، ويتباهى على الكون بخيّالة الرعد الطاهر، التي ألقت ظهرها النبيل على جداره وصدّت اهتزاز الشيطان وتجاعيده، وأبقت أعشاش النبات ممرعاً بأسماء الحق المنيع.

وللقدس أن تفتح كفّ أم حسن وهي مسجّاة مطمئنة، لتجد مفتاح بيت أبيها في القطمون غرب القدس المُضيّعة، وفي تلافيف صدرها كوشان الدار والعليّة الحجرية البيضاء.

وللقدس ستّ الأرض الأحلى والأكمل، أن تعمّم صورة ذراع أم حسن بعد أن وشمت البلابل بمناقيرها أسماء الشهداء والجرحى والأسرى واللاجئين على سواحله الممتدة الصلبة.

وللقدس ابنة العبقرية الأزهى والأعمق أن ترسل تسجيلات صوت أم حسن ليكتشفوا أن فيه صوت القتلى، ونداءات الساحل الطويل الغريب والبحر العاشق، وأعراس ليمونة الحيّ.

أم حسن أسم آخر يليق بالقدس، وحلم ينبغي أن تراه العيون، لينجلي المشهد كاملاً بكل دمه وزغاريده ومناديله الراعفة.

نصوص المدينة

القدس المتوكل طه

الخالد المتحرّر

أيها الخالد المتحرّر من الفناء والمراوح، والسقوط المفاجيء في الجديلة المبتورة! تعال واشرب معنا، على إيقاع المشبك الذهبيّ، كأس ما تبقى من الذهول، لتعودَ إلى الأشجار البنتُ الوحيدة التي نجت من معركة الحيّ، وبقيت رموشها مصقولةً بالدم والقلق ..

أيُّها الخالد، المتحرّر من الفناء

ستقول أُمُّها المطهمة بالضوء: اطبقْ على أنفاسي لأتحرر من الجمرة الكأداء، التي تخرّ في ليْلك الربيع، وستطلب إغفاءةً على ذراعك، وهي تمضي إلى حليب الرحمة.

****

أيها المتوَّج على اليقظة، الحارس لبوابة المجرّات ! لقد أعدتَ الترياقَ إلى البحر، والنسغَ إلى بيارات الساحل، والغمزةَ إلى عين الفاتنة، المتأجّجة بزغب الجَمْر، وحفظتَ حقيقةً لن تموت.

ها هي عصاك تضربُ النجومَ، فينقدح الفضاءُ بنثار الحصان الفضيّ، المشرف على تلّة في الجليل.



***

وها هي جدائل الحلوة تنسرب في الحدّ الفاصل بين السموات والأرض، وتخضّ قارورة الخلود، ليشرب منها العدم فيعود وجوداً. وها هم الشباب يضرّجون الكواكب بأقدامهم المدَمّاة وجماجمهم المحطمّة .. وبقي العَلَم مشرعاً في العجاج.

***

لقد حوّل الرماديُّ السرّيسَ إلى شاهد عاجز صامت، ليظلّ القتيلُ مختفياً بين الصخور، وجعل امرأته مبذولةً للزجاج، لكنها لن تدخل إلى ثياب الغانية في الليل الممسوس بالعرق ! رغم وعيه الكوميدي الذي أنبأه أن شفافية البلّور ضعفٌ وليست رِقّةً !

وبقي كَشْحُ الغزالة عصيّاً على سياط العنّين وشهوته الكافرة. وظلّ دمعها أنيقاً في بيت العزاء المشرع منذ قرن .. ولمّا يصله الموتى !

***

كان الرمز الرمادي مثل شهريار ذي القلب المثليّ والملابس الأنثوية، كما أمرته حواسه الشاذّة، وأراد أن يُفرّغ دروسنا من الذكريات والحكاية المشتعلة، ورفع حاجبيه من تمنّع أرملة الشهيد، التي وزّعت الحلوى لطائرِ الفردوس ..

ما أروعها ! وضعت له السُمّ في الشراب وأطبقت بفمها



على شفتيه، فاستيقظ على صوت المنادي، فخرج يكسر الهواء، وتوالدت من يديه النسور، وبذَرَ السهلَ الممتنعَ .. لكنه لم يحصد الصيف. لقد أخذوا الغلّةَ كاملةً للحريق.

****

وما زال المذياع يقدّم مرافعته الوجيهة في الدفاع عن القاتل، الذي عانقه صاحبُ البيت قبل أن يبلغ بيته! فانهرق الميزاب وانطفأ الوتر، ونسي المصلّون وتْرَهم، ولم ينته الصوفيّ من رحلته ! وبقيت صفراء، كالحة، مأجورة، مُنافقة .. ولا أقصد الصحافة، لكني أعني الحبّارين أصحاب اللغة المواربة !

****

وبعد مَقتلك بقليل، لم تجرؤ القُبّرة لأن تطير ليلاً من الخرّوبة وتشمّ ضفيرة الفرفحينة، لأنهم دبّجوا حروف الفخّ، ووضعوا رسومات أُخرى، وكانت المطبعة حرقت كتابك بأناقة بالغة، تشبه أناقة الياقات السوداء، التي تمرر القاتل من سمّ الخياط، كالسحرة! وطبعاً لا أقصد الساسةَ الباعةَ المستريحين، الذين تذرع نساؤهم واجهات المحال التجارية بحثاً عن رجال ! وبقينا نحن أيتامُكَ سجناءَ المدينةِ والعنوانِ والنصِّ.

قال عامل المطبعة : كان الكاريكاتور للصحيفة كالأوكسجين، وعندما غاب .. لفظت الأوراقُ أنفاسها ! لكن صاحب الذقن الموخوطة بالرعونة لم يوافقه الرأي،



فأبقاه عاطلاً عن الحُلم .. لقد أخطأ لأنه يعاقر الشغف، رغم ضحكته البيضاء كالأشباح.

***

أين أخذوا الأولاد، إلى النهر أم إلى التلّة المبلولة بالصراخ؟

إنهم يعرفون الألقاب والبِساط الملون والراية الهابطة بديلاً للعنوان المقصود ولذاكرةِ الجدّة، التي تبكي دون دمع، كلما تذكرت ذلك النائم الذي عاد على ظهر الحصان، وتسأل: كيف أصابَتْهُ البنادق وقد شرب حليب الفرس ؟؟

لكنها لم تعلم أن الغزالات يُمشِّطنَ الغروب، وينتظرن الزفّة الرانخة بالأرغول والمناديل، ويُطلِقْنَ الزغاريد كالسِّهام المشتعلة.

***

لم تكن رسالة صديقك التي بعثها من وراء البحار بلغته المعتادة، كانت مبهمة مثل ابتسامة أمِّه، التي سمعت الخبر من المذياع، فلم ينقض وضوءها لحمُ الجَمل الذي أناخوه غَدْراً، بل رائحة الظهيرة القاسية.

أما شيخ البّلد الذي نادى المآذن، فقد قبَّلَ ضفائر الرجال، وغمز بِكوفيته زوجة ضيفهِ العزيز، ورئيس القبيلة يستحمّ تحت صنوبر الجبل بالفولاذ.

لديَّ ضيف شَرِه، يغيب عن الحكاية كلما نضج المساء،



ولديّ تمثالٌ منحوتٌ في الريح، لا لون له الآن، لكن الأرجوان نائم في الحجر.

***

لم يكن سيّدك الذي قطفتَ صَدْرَ امرأته ولم يتكلم، إنّه آخر أشكال الليل، الذي انسرب إلى عثنون الصبيّ، وحاول أن يقبّل القفير، لكنه تراجع، لأن النحل لم يخرج من فمه.

***

بعد موتك تصافح الرجلان، واعتقد العالم أن الربيع حلّ على المقابر، وطاب له ألا يرى البلطة خلف ظهره .

والصامتون الذين قيّدوا أياديهم بأرجل العَرْش لم يهبطوا إلى السماء، فبقيت الكآبةُ نيشانَ الكتف الباهت، واحتكاكَ الكفين لحظة التصفيق، وبقيت الهزيمة جائزتهم، فليهنأوا بالرذيلة.

***

لم يبق من الخنجر الأرضي سوى المجاز! وأخفت الفرسُ نحيبها في العشب، وتركوا لنا الطحين والملابس البالية، ونسوا أن عين المرآة أكبر من الحوت، ولا شراع ينزو على الموج، والناعورةُ الخرساء ستمسحُ الحرارة وتزيل الغثاء، وتخرج طيبّةً كنوايا العاصفة، إلى الدالية والروح وذَهَب الشعله الباقية.





والرمادي الذي اغتالك، وافترع الصغيرة، أصبح مُهاباً يتقلب على قطن الزّبد، ويبحث عن السحلب البريّ في الرقاب، وظنَّ أن الشاهدين سيذويان، تماماً كمن يضغط على كابس الضوء ليشتعل، فتسود العتمة.

***

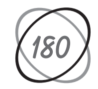
لقد تعبنا من المشي، فلنركض على سطح الرخام، الذي يعمّ داخله الدود، لنسجّي القتيل الذي رفع النرجس إلى الملصق.

***

لقد استمرأوا اللعبة، ينامون ولا يحلمون، في زمنٍ مرّتب كالدّوران خلف النمل الأزرق، الذي قوّض المواسم، وجعل الحوشَ مرتعاً للغبار، وكانوا يعرفون ما الذي سيقوله الرمادي فيهم، لكنهم صفقوا ووقفوا تبجيلاً للضياع! وخرجت الصفحات، كالعادة، ملونة كالحرباء. لقد جرفوا القلوب، وعرّضوها للخنوع، ولم يختلط الأمر على تمثال الشّهيد، لكنه الظلُّ الذي يلتبسُ على الناس، الذين يعزفون قليلاً رغم الخيانة، لكنهم ينشدون أغانيهم في النهاية.

***

لقد دخلنا في التيه، لكننا لن ننتظر أربعين سنة في الرّمل، لأننا على موعد مع الميجانا والميرمية والسيدة العذراء، ولأن الشجاعة هي التي تنتصر دائماً.



الحُرّ على الأرض الأَمَة
إلى سامر العيساوي

كل شيء معتقلٌ في فلسطين ، المحـراب والجَرس والبرتقالة والأُجنّة والطيور ، ومسرى النبي الإمام ، وقبر مَنْ قام من الموت إلى الحياة .

وليس لهذا النصّ الموجع أنْ يتوقّف، حتى يتخثّر دمنا، ونغادر بيت العزاء، ليليق بنا الحزن الجليل .

وليس للأمهات شقائق الحقول، حتى يتحرّر العشبُ من أنياب الحديد، وجدران الغرباء الطازجة.. العنصرية .

وليس للسجِين غناء القرى، وأمسيات الحجل على المشارف، وعَرق الفَرس العسليّ، حتى تدخل الزّفّةُ الرانخةُ فضاءَ الأكتاف دون الحواجز والتلال المُثقلة بإسمنت المملكة اللاتينية الجديدة.

وليس لسامر ورفاقه لغة تتسع لسنوات أعمارهم المقدودة وراء القضبان، وفي حمأة الغاز المسيل للعار، والتفتيش المباغت، والجوع الفارم للأمعاء، ولزهرة السيجارة المتّقدة من قلوبهم ، وفناجين قهوتهم البلاستيكية المتأمّلة،



ورعدة نبضهم التوّاق، والذكرى المُطفأة وراء ضباب الإبتعاد، ورطوبة القيظ اللّزج، وبرد الأسداف، والعزل على حافة الجنون .. حتى تجعل منهم تلك السنوات أنبياء جداً يجترحون حروفاً لكتبهم الصعبة الفريدة .

وليس للعالم إلاّ أن يخشع قليلا، أمام كهولة صعدت من فتوّتها، إلى احتمال الرُمّانة الناضجة فوق فوهة البئر، وهي تمرّ على شفرات الأمل، لتبلغ أرضاً يقترحها الحُلم، والواجب الذي تخلّى عنه أصحابه الشرعيون، ونسيوا أجمل أخوتهم في الجُبّ البعيد .

وهل آن الزمن لأن يكون للشعب الفلسطيني رؤية أو استراتيجية ، يتعاطى من خلالها مع كل التحديات والأسئلة والاستحقاقات ، حتى لا يظل الشعب عُرضة لردّات الفعل وللموسميّة ، أو نهباً لضرورات إغاثة الملهوف ، الذي يصرخ ملء الأرض من ظُلم الاحتلال أو ذوي القُربى ، وكل شيء يستغيث في فلسطين !

وليس لهذه الرداءة في خِطاب المرجعية إلاّ الخجل أو الخَرس، حيث لا ذريعة ولا تَبرير ولا مرافعة تُقنع أحداً، بأن تلك المَظْلَمة ما كان لها أن تتوقف قبل أن تبلغ شهقتها الذابحة في مكابدات الجوع ، أو شيخوختها في العتمات .

لم ألتقِ سامر، لكنه أخي ، واسم بلدتنا المطوّقة بالأبراج والفوّهات، فصارت مَعزَلاً للموت والعمالة السوداء والانكسار،

وهو كأسي المحطومة على خوان فرحي ، الذي انقلب إلى دّكّة للموتى .

وسامر السجين هو نزول المأذنة عن السور والآيات، لتصبح حجارة الجامع حائطاً للبكاء الهجين . وسامر تكلّس المخيم وبقاء المجرى الشاهد على الإقتلاع، ومقعد اللاجئة الباكية على حجر الطريق ، الذي شهد صعود الدالية، لكنه سرعان ما رأى المؤامرة التي باعت المسيرة والشواهد والدماء.

سامر المضرب عن الطعام منذ ثمانية أشهر في معتقله، صورة ضعفنا الكابية، وتجليات هزيمتنا في ارتداد الذات وهي تمزّق ذاتها، وفي تقمّصها لقاتلها، وفي فوضاها الهشّة العشائرية وهي تقطّع منظومتها الأخلاقية وتلعن كلماتها ، التي كانت تسطع كفراشات النار، وفي قبولها لنقيضها وارتمائها في حضنه الغارق بدم صغارنا، وفي معانقة سيّاف السنابل والحبق الطريّ، وفي انعدام ثقتها بنفسها وبتاريخها وحضارتها وغدها، وفي آليات البحث عمّا يعوّضها، من كذب وَوَهْمٍ وخطابات ملعونة خادعة .

سامر العيساوي اختصار لمعادلة الإقليم، وانطباق الفخاخ على عنق الغزال البريء . وسامر الفلسطيني الذي كسر إحتكار « اليهودي « لصورة الضحية ، وصار الفلسطيني هو ضحية الضحية المُدّعية ، وبات العالم بفضل الفلسطيني السجين والمقاتل والمبدع والدبلوماسي والمرابط .. يُدرك أن المعادلة كانت مُختلّة ، وينبغي تصحيحها ووضع الإحتلال



في إطار الجلاد ، ووضع الفلسطيني في صورة الضحية ، وما يعنيه ذلك من إستحقاقات لصالح القوة السلبية التي تتمتع بها الضحية .

وسامر العيساوي البرهان المشعّ المدوّي والشاهد على تكاذب المتفاوضين . وهو الرمز الأعلى واللاّزمة التي نكررها، بمحبةٍ وكبرياء مجروح، كلما دهمتنا الكآبة، وحاول النسيان أن ينالَ من وردتنا الوحيدة الباقية، وأعني الشهداء مع وقف التنفيذ، الذين يخاتلون الرمل والرغبات والأحلام واليقظة المُلحفة في سعيها إلى الخلاص .

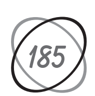
وسامر العيساوي طابع بريدنا الذي نختم به رسائلنا العاشقة، إلى ذلك المأمول الذي ننتظر ولادته، وسيجيء، أو ننتظر خروجه من خلف الأبواب الغليظة الثقيلة الصدئة، وسيكون حضوره ملء الشمس وفوق الكلمات ، التي نبحث عنها، فتهرب من ضعفنا وعجزنا وبحثنا عن خلاصنا الشخصي الممقوت، وستلد معه الأناشيد، وستخرج الحقائب المعبأة بالألوان، ونهتف من جديد، رغم صبيان الفقه الأمني المشبوه ، والرويبضة الذي صعد على حبال الشيطان إلى سطح الكلام ، وترسّم بملامحه الاسخريوطية .

سامر العيساوي أقدم مضرب عن الطعام على هذا الكوكب، هو فلسطين التي تعتبر أقدم ضحيّة على هذه البسيطة المعقّدة، التي تسيطر عليها حاملات المجرمين وكارتيلاّت المحتلّين الجدد للعواصم والأنهار والآبار . ولعل

سامر يستحق أن يدخل الموسوعة المتميزّة من باب البقاء حارساً لأحلام وثوابت شعبه وأُمّته، وليس من باب الألم أو اعتباره ذبيحة معلّقة على مرأى من الساسة ومنظري حقوق الإنسان وأصحاب المقولات المقلوبة،الذين يدعمون اسبارطة في تطوير طوطم رعبها النووي، لتمعن في لحم الطيور والرُّضّع والنساء .

وإن احتمال دولة الإحتلال بإبقاء سجين في زنازينها وهو يحتمل آلام الجوع ثمانية أشهر ، ولا يحتمل آلام الركوع ، وأخرين أمضوا أكثر من نصف أعمارهم في زنازينها، هو دليل آخر على عقليتها التي طوّرت كل أشكال القمع عبر التاريخ، وأعادت إنتاجه على جلودنا، والتي تزّج بالجثث في ثلاجات السجن، وبالأطفال في أتون المعسكرات الإعتقالية المرعبة، وهو دليل مكرور بأن هذا الكيان لا يعرف سوى الموت ثقافةً ولغةً، ولا تردعه سوى القوة والكوابح المُقاومة . وثمة طابور من الهالوك والرماد المتّصل بجحيم السجّان َ، الذي يلمّع وجهه بالشعارات المصقولة ، ولا إرث له سوى الترنّح والهمسات وركوب الموجات والإلتباس وهدم نوافذ الآباء .

وإن العتمة المختزنة والمكثفة في باستيلات الاحتلال كافية لأن تفور وتُغرق نصف الكرة الأرضية بسوادها الثقيل، غير أن إرادة الأسير الفلسطيني والعربي استطاعت أن تحيل تلك المخازن الخانقة إلى قلاع تضجّ بالإرادة والثبات والحياة والضوء، وأن تفتح البراري، ثانيةً، للخيول . وإن الاحتلال



الفاشي بجنوده ومستوطنيه وسجّانيه ملطّخ بالعار والدم البريء ، وأما سامر وأخوته فإنهم يدافعون عن شرفهم وكرامتهم ومقدساتهم ومستقبل أبنائهم المأمول .

وإن الاحتلال الذي يهدم المساجد والمدارس والبيوت والمشافي ، هو نفسه الذي يقيم السجون الأسمنتية المنيعة ، في عرض البلاد وطولها ، حتى أصبحت معتقلاً يُطبق على فلسطين ، من ثوبها الثلجي الشمالي إلى قدميها الذهبيتين في الجنوب .

وقد يكون سامر العيساوي هو الثروة الحاضرة الأكبر، الآن، في فلسطين، والتي تدلل على عمق حيوية وتراجيديا شعبنا ومأساته، وعلى مدى المعانيات التي يواجهها هذا الشعب، ليردّ على غوائل إلغائه وشطبه. وإن هذه الثروة النضالية والإنسانية والوطنية كفيلة لأن توّصل لبداية مختلفة لوحدة الحراك والعمل الفلسطيني، لقادة الفصائل والحركات والأحزاب، الذين قطعوا شرايينهم بأيديهم ودخلوا إلى غرفة الإعدام، أو تحلّلوا ضعفاً ومصالح، وغسلوا يد الإحتلال من دم الأجنّة والأشجار والبيوت، بقصد أو بغير قصد، لتصل اللحظة إلى مواجهة حاسمة ستقع عمّا قريب، ستودي بنا إلى الغياب الكامل، إن بقينا على حالتنا المرتكسة المتشظية الخائبة، أو سنحقق انطلاقة جديدة، واجبة الوجود، إذا احتسبنا واحترمنا سنوات سامر وجوعه، ودماء الشهداء، ودموع الأيامي والأيتام، ولهفة المنتظرين خلف السياج .

ونسأل أنفسنا، هل استطعنا أن نجعل من زهرة عذابنا شمساً تشرق على العالم ليرى نفسه ويرانا؟ هل يدرك العالم معنى أن يُمضي إنسانٌ عمره وراء القضبان، أو يقضي جوعاً، ويظل هذا العالم سادراً في كلماته وخطواته، ويهنأ في حياته، وعلى مرمى نظرة منه ستة ألاف سجين وسجينة، عشرات منهم بلغوا عامهم الثلاثين في الأقبية وعلى الأبراش، في سجون لا تشبه إلاّ صورة الهلع الفاشي ومعسكرات الإبادة والجينوسايد ؟

يا سامر، يا اسمنا السريّ الحَسَن الذي فضحه التاجر في عتمة التخلّي العربي عن اسمه وحقوله ! سيكون سجنك مدرسة لأبنائك، وفضاءات لعب عميق لأحفادك .

وربما مللنا ترداد تلك الجملة العبثية المتعلّقة بتلك اللقاءات العبثية، التي تغطّي على جرائم القاتل وتمنحه شرعية النهب والتهويد والساديّة، في مدن الحواجز وفي زمن السلام الجنائزي الاستيطاني المخيف .

يا سامر يا تمثال الضوء على كل مفرق ودرب، يا روح الأوائل المتبقّية، لتعيد إلينا ملامح الطهارة والإلتزام، ويا لمسة الأم على نبض جِنينها الآتي عمّا قريب .. يكفيك أنك حُرّ على هذه الأرض الأَمَة، ويكفينا أننا نجد زاداً، من لحم عمرك، لنواصل الخطو إلى الشمس، وأننا على يقين بأن القيود تتغضّن على معصميك أيها المصاب بالحريّة والحياة.

وكيف لقادة الحركات والمسؤولين الفلسطينيين أن



يتجالدوا ويتقاتلوا، وهم معلّقون في هُوّ العدم ، على أنقاض بلدٍ يهضمه الاحتلال ، ولم يترك لأصحابه غير ترف ذبح أحدهم الآخر ... وقد قبلوا بالمهمة !

وهل نخرج من رتابة الخطاب الجاهز الغاضب، ونلج إلى هذه الحالة الإنسانية الفريدة المميزة، ونبحث عن أشياء سامر التي تركها قبل سنين في القدس، ويشتاق إليها، وعن أمّه التي لم تحضنه منذ سنوات الإغتصاب العجاف، وعن تفاصيل يومه ومقاطع لياليه الطوال، وعن هواياته المقتولة، ورغباته المطمورة، وعن أمنياته الصغيرة التي ستظل ثابتة مثل سيف البحر وسارية العاصفة العنيدة، وعن خيول ضلوعه التي تتفلّت من حبسها، لتكشف عن النهر الصاخب الفتيّ، الذي ينبع من سويداء صدره، وسيصبّ في جبل الزيتون، الكنعاني، شاهد فلسطين العالي، مروراً بعسقلان الرباط وحيفا القسّام، وبدءاً من قبّة البرتقال والقيامة، وحتى لا تجد امرأة ضرورةً لترداد ما قالته أمّ المصلوب الثاني، بأن الوقت آن وأزف لهذا الفارس كي يترجّل .

يا سامر ! أنتَ الأن فلسطين ، وشعبك يتنفّس في ظهرك ، أما الباقون فهم جوقة لكربلاء العتمة ، أو جوقة لملهاة ماجنة. فاصمد حتى ينتصر الموسم ، وأكمل زينتك إلى أن نقيم السامر الكبير .



شهادة:

نصوص المدينة

القـدس المتوكـل طه

الشِعر والقدس

في الشعرِ ما ليس في غيره! هو المدهش والمفاجيء، هو الذي يمنحني ما أنا فيه وما أنا عليه، هو الذي يجددني ويجدني ويفجئني، وهو الذي يمتعني ويغنيني ويعذبني ويعزيني، لا أعرّفه ولا أعرفه لكنه يعرفني ويعرّفني، ليقول فيه المنظّرون ما قالوا، وليذهبوا كل مذهب، وليحفروا كل الأنفاق، وليؤسسوا لكل المنطلقات والبناءات، هذا أمر لا يعنيني، ولا يشغلني، فالشِعر عندي هواجس تتلبّسها الإيقاعات، أو إيقاعات تتلبّسهَا الهواجس، أو دفق من الرهبة أو الخشوع أو الاتّساع أو الاستمتاع. لا حدود للكلام كما لا حدود للحواس و لاحدود لما يصيبنا، فالشِعر هدية الله لنا لنقفز في الشِعر وإليه، لنركب أو لنقفز عن ما لا نريد إلى ما نريد، أو لنقول الأشياء من جديد، أو لنبدأها من جديد. هو هدية الله لنا باعتباره المجاز، المجاز إلى لغة أخرى، أي واقع آخر. هو المجاز، وهو الذات وهو الموضوع معاً. في الشِعر نلتقي أو نتماهى أو نتذوّت، كلّ شيء يصبح كل شيء، عالم سائل لا فوارق فيه ولا فواصل، فالشَعر كالماء، لا تفرّق فيه نقطة عن نقطة . دائماً كنت أشعر أن الموسيقى كالماء أو الماء

كالموسيقى.

وعندما أدركتُ الحرفَ وصرتُ أقرأ رأيت أن العرب القدماء كانوا ينقدون أشعارهم باستعمال تعابير الماء، فأعجبني ذلك أيٌّ إعجاب .

ولا أحد يحتكر الشعر أو القول، ولا أحد يحتكر أو يغتصب المنصّة ، ولا أحد يدّعي أنه قال شعراً فانتهى الشعر، نحن الشعراء الفلسطينيين ، نقع تحت سيف نجومية بعض شعرائنا الكبار، فإذا قلنا شيئاً قورن بما قاله كبارنا، وإذا ابتدعنا شيئاً رُدّ إلى نجومنا، والحقيقة أن هذا صنميّة من نوع ما. الناس تحب أن تعبد النجوم وتحب أن تقيم الأصنام أيضاً. الجماهير تميل إلى النمذجة كنوع من الاستسهال وكنوع من الترميز الشعبوي، ولا نشكك هنا بكبارنا الذين سبقونا، فهم كبارٌ بشعرهم وقضيتهم وشعبهم، مهما قيل عن الروائع والظرف التاريخي المواتي والمزاج العام، الذي كان راسخاً ومشجعاً، ولكن من الخطأ الجسيم القول إن الشعراء الفلسطينيين، كلهم أو معظمهم، هم عمال مياومة عند هذا الكبير أو هذا النجم، كل شاعر هو قصة، وكلّ شاعر صوت، وكل شاعر صورة، وكل شاعر له معوله الذي يحفر فيه صخرته أو أرضه التي ارتضاها لنفسه. كل شاعر قال ورأى وغنّى ووصف وأمتع واستمتع. كل شاعر لديه موسيقاه، التعددية دليل على واحدية ووحدانية الله، ومن الخطأ اختصار شعرنا الفلسطيني في شاعر واحد أو اثنين . فلسطين المتعددة دليل

على أنها الأرض الواحدة التي قرأَتها ثلاث رسائل سماوية، فلا يمكن لشاعر واحد أن يختصرها أو يختزلها، إنها الأرض الحبلى دائماً، وما جعلها الله حبكة الحبكات إلا لقضاء في نفسه وقدر في تدبيره .

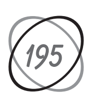
الأرض المقدسة وسرّتها القدس الشريف وسرّها، المقروءة القارئة، المعروفة العارفة منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، هي حبكة الحبكات كما تلت، حبكة الدين وحبكة التاريخ وحبكة الصراع، بقدر قدسيتها بقدر تدميرها، وبقدر غموضها الحارق بقدر حرقها المتعمد، وكأنها مدينة لا تعيش إلا على حد السيف، وكأنها مدينة تعيش على الهاوية من كل شيء. وأدركناها محتلة، يعيث فيها المحتلُ الفساد، تدميراً وتحويراً وتغييراً، باحثاً عن شاهد لأوهامه ومنقّباً على دليل يؤكد أحلامه الخرافية، فلما عجز، أخذ يستنطق الحجارة التي لا تنطق إلا بالحقائق، ولم يجد تحت الأرض شيئاً، فأخذ يُغيّر ظهر الأرض، ولم يستسلم أهل المدينة فأخذ بطردهم. الشِعر هنا شاهد حيّ وحيوي على لحظة يتجرد فيها المحتل من كل الدعاوي المتنورة التي تدرّع بها أمام نفسه وأمام الآخرين. الشِعر هنا يمارس دوره الشرعي والمشروع في التحريض واستلهام الموروث الذي لا يذوب، ونحن هنا لا نتحدث عن القيم الجمالية بقدر الحديث عن القيم الأخلاقية. وعندي أن القيم الخُلقية هي معيار حقيق، وليقل النقاد ما يقولون، القيم الجمالية على أهميتها هي الشكل الذي يذهب ويجيء حسب



المزاج وحسب الذائقة المتغيرة، ونحن هنا نتحدث عن القدس العربية والإسلامية، يعني، نحن هنا عراة أمام أنفسنا، أمام صدقنا وجوهرنا، وأساس وجودنا، لا مساواة أمام القدس، ولا تهرب أو تملّص أو رخاوة أو ليونة. بقدر جلالها وهيبتها وأسرارها يكون الشِعر، بقدر غموضها وقدسيتها وعمق حبكتها يكون الشِعر .

في «ديوان إيليا ويبوس»، ديواني المتضمّن عن القدس، حقّاً ارتبكتُ أمام هذه المدينة العظيمة، ارتبكت ما بين القولِ والقول، ما بين سيولة الشِعر واندفاعه، وما بين صناعة النثر وهدوئه، التقدّم بين يدي هذه المدينة والكلام أمامها مربك وثقيلٌ ويحتاجُ إلى استعداد. لقد عشتُ في هذه المدينة سنوات شبابي كله، حتى لم يعد بإمكاني، كما شعبي، أن ندخلها. وشدة القرب حجاب كما يقال، ولكن هذا القُرْب جعلني أيضاً اكتشف كم هي مدينتي خاصة وفريدة ولا مثيل لها في الكون كله. في ديواني هذا، أردت أن أُغنّي لمدينتي، وأن أُهدهدها، وأن أبكي بين يديها و أواسيها و أُطمئنها وأن أطمئن نفسي، واقرأ وأن تقرأ لي عما سيأتي. أردت أن أشاطرها أحزانها الطويلة، عندما هدمها الغزاة ودمّرها المجرمون الذين تحولوا الى تراب أردت أن أشرب معها القهوة في الصباح، وأن أقدم لها الفطور ، وأن أمشط شَعرها ، وأن أزرع على بابها وردة، وأردت أن أملأ رئتي من هوائها، وأردت أن أذكر اسم الله في شوارعها، وأن أرفع الآذان على مساجدها، وأردت

أن أُضيء شمعة في كنائسها، وأردت أن أقف على أعلى ربوة فيها، ألمس السماء الممتدة فوقها، أردت أن أقول لها إنني أعرف أسماءها كلها، وأعرف كل حَجر فيها، وأعرف كل التقاة والملوك والأنبياء الذين فُتنوا بحبها، وأعرف كل المتصوفة والعابدين والزهّاد والكتّاب والشعراء الذين عشقوها إلى الأبد. أردت أن أقول لها إنني أريد منك متراً واحداً، أُدفن فيه تحت زيتونة على جبل الطور أو تحت تينة على جبل المكبر. أردت أن أقول إنها لي، لأني أنا الضامن لحريتها وقدسيتها وتعدديتها ورسالتها الحقيقية لكل العالم، رسالة المحبة والتسامح وعبادة الواحد الأحد، دون تمييز أو عنصرية أو احتقار أو استبعاد، الله واحد في كل الأماكن، ولكن الناس جعلوه أرباباً ، وتمايزوا حتى بالتقرب إليه. في القدس، في مدينتي التي لا مثيل لها تتجاوز جدران العبادة، وقبور العُبّاد والزُّهاد حتى أن الناس يزورون ذات المكان رغم اختلافهم في الدين ، لأن مدينتي ذات قلب واسع، وما قلته من قول، شعراً كان أو نثراً، في هذا الديوان أو غيره ، إنما كان محاولة مني لاحتفل بمدينتي في قلبي أولاً، ثم احتفل بها مع العالم. لا يمكن اختزال المدن في قصائد، فما بالك بالقدس الشريف ؟ ما فعلته كان نوعاً من الفهم، إذا جاز هذا التعبير، القصيدة أيضاً في نهاية الأمر جهد ما، تجميع للتفاصيل، إعادة تركيب، رغبة في إقامة نظام مختلف. لهذا حاولت أن أفهم، ربما ليس هذا هو موقع الكلمة الدقيق، فماذا



يعني الفهم أمام الموسيقى التي تأخذ القلب، ولكن أمام القدس ، بكلّ هذا الغنى وكل هذا التعقيد والتركيب، حاولت أن أفهم ، ربما، لهذا السبب ، كان ديوان إيليا فيه كثير من النثر، النثر يساعدنا على الفهم أو استعادة الفهم أو إعادة الفهم. ولأكن صريحاً هنا، أنا من النوع الذي يرغب في الغناء، في التدفق والانفجار، ولكن القدس أجبرتني أن أتروى قليلاً لاكتشف كنوزها وطبقاتها المتعددة وتواريخها المختلفة . نعم، للقدس روايات متعددة، وروايتي التي أُصدقها هي رواية واحدة من بين روايات عديدة، فماذا يفعل الشعر بروايتي . الشعر يقين أيضاً، الشعر حقيقة، ولهذا أُغنّي ولهذا أكتب. مدينتي لي، وليؤلف الآخرون ما أرادوا من روايات عنها، فالعالم يسير ويستمر بالإيمان لا بالرياضيات، ولهذا فإن القدس هي أكثر مدن الأرض التي شهدت صراعات وخلافات حولها، وحول ملكيتها وحول قدسيتها، فما الذي دفع بنبوخذ نصر وسنحاريب وقورش وفرعون والأسكندر وهرقل واللّنبي وموشيه ديان إلى احتلالها وادّعاء ملكيتها ؟ قصيدتي كما قصائد الشعراء الفلسطينيين تردّ على ذلك بأكثر ما يمكن من قول . إنها مدينتي، فأمام تركيب المشهد وتعقيده، وأمام الهزائم التي نعيش، وتوالد الفصاحة والبلاغة الفريدة، أعود إلى الكلام العاري كشوكة: إنها مدينتي .. لا أقل ولا أكثر .. اليوم وغداً وإلى أبد الآبدين .

مقالات عن القدس:

كتبت العام ١٩٩٩م

نصوص المدينة

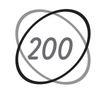
القدس المتوكل طه

مقاومة المكان المقدس ..
آليات التطبيع ونقيضه

الحديث عن القدس منذ سنوات لا يَسُر ولا يطرب، عندما تزورها فإنك تشعر بما شعر به أسامة بن منقذ عندما زار القدس وهي تعاني إذلال وحكم الفرنجة. القدس الآن وباختصار ودون الخوض في تفاصيل محرجة ومخجلة، مدينة تمزق وتخترق وتمحى وتهود، وتُغير وُتبدل بوصة بوصة، جداراً جداراً، ويعمل المحتل على محاصرة أهلها، بيتاً بيتاً، شاباً شاباً، امرأة امرأة، بالضرائب والألاعيب والمؤامرات المخابراتية والتهديد بالطرد والتوقيف وعدم منح الأوراق الثبوتية وباقي أوراق المواطنة والبقاء التي تكتسب أهمية كبرى للصمود اليومي واحتمال الحياة في القدس، ولا يكتفي المحتل بذلك، فهو يسّهل كل أنواع الجريمة والانفلات والانحلال والتفكك الأسري والأخلاقي، والمحتل يغض البصر عن الخلافات العائلية والقانونية وحتى الفصائلية ما دامت تصب في مصلحته ومصلحة بقائه، والمحتل استطاع أن يطرد



أو يسهل طرد المؤسسات الفلسطينية ذات الصبغة السيادية أو الشبيهة بها، واستطاع المحتل أن يغلق أو أن يعمل على إغلاق كل المؤسسات الفلسطينية والعربية والأجنبية التي تعمل في مجال الثقافة أو الفن أو التربية أو التعليم داخل مدينة القدس. واستطاع المحتل أن يسّور المدينة المقدسة بعدد من الأسوار التي لم تشهدها مدينة في التاريخ من قبل، فهناك أسوار من الاسمنت، وهناك أسوار من الأسلاك الشائكة وهناك أسوار من المستوطنين، وهناك أسوار من الشوارع الالتفافية، والأهم من كل ذلك، هناك أسوار من الصياغات الدبلوماسية والتواطؤ الدولي والدعم القريب والبعيد، تسمح للمحتل أن يستفرد بالقدس وأن يسوّرها وأن يمتلكها أو يهيئ له ذلك حتى حين. إن السور الدبلوماسي الذي يسور القدس ويفصلها عن محيطها وبيئتها وشعبها يقابله أو يدعمه ويقويه سور من الألسن المربوطة والقلوب الخاوية ممَّن ارتضوا السكوت رغم انتسابهم للقدس ديناً ولغة. ورغمٍ ذلك كله، ورغم أن المواطن المقدسي غير معرّف قانونياً حتى اللحظة بما يفيد مواطنته وامتلاكه لبيته أو مدينته – فهو يحمل ثلاثة أنواع من الوثائق الثبوتية المتضاربة فيما بينها – ألا أن هذا المواطن المحاصر والمهدد والملاحق بكل شي هو الذي يهب في كل لحظة ليحمي الأقصى بصدره العاري، وهو من يهب لنجدة الكنيسة أو المسجد أو المقبرة أو البيت الذي يحاصره



المستوطنون . المواطن المقدسي ورغم كل المؤامرات التي تحاك ضده إلا إنه يحمل على كتفيه المثقلين قدره الثقيل والمقدس.

تشهد القدس اليوم أقوى وأعمق هجمة استيطانية إحلالية في تاريخها الحديث، إذ يقوم المحتل فعلياً بإفراغ أحياء كاملة من القدس من مواطنيها الأصليين، في حي البستان والشيخ جراح وفي قلب المدينة القديمة، يترافق ذلك مع تسمين المستوطنات المحيطة بالقدس من جهة، مستوطنة معاليه ادوميم شمالاً وحتى جيلو جنوباً، والمحتل يقوم الآن باستباق الزمن وفرض الواقع والوقائع قبل أيّ تسوية يتم التوصل إليها فرضاً أو طوعاً، مع الأخذ بعين الاعتبار أن أيّ تسوية سياسية ستكون ضمن موازين القوى الحالية لصالح المحتل بالتأكيد، وستكون التنازلات والتسويات على حساب الطرف الأضعف.

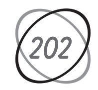
لا يمكنني الآن وصف مدينة القدس التي تختطف من تاريخها وهويتها، فالانفاق وعزل الإحياء العربية وتطويقها لمنعها من النمو والتمدد، ودفع المستوطنين في كل زاوية وفي كل بيت مقدسي، عدا الكاميرات التي تراقب حتى الذباب في المدينة، والتواجد الشرطي والمخابراتي الكثيف، والوجود الدائم للرموز الإسرائيلية واليهودية في كل شارع، والحرف العبري الذي يغطي اللوحات واللافتات، وعسكرة الحياة



وتسميمها بالفوبيا الأمنية التي تراها في كل زاوية، يجعل من مدينة القدس مدينة غريبة وبعيدة. أما المسجد الأقصى فإن زيارته مخاطرة، ففي أيّ لحظة قد تفاجأ بسوائب المستوطنين المتطرفين يطوفون في أرجائه، أو تفاجأ باستنفار عناصر الشرطة الإسرائيلية وهجومهم على هدف ما، وعادة ما يكون صرة تحملها قروية فلسطينية تسللت من أحدى القرى القريبة لتصلي ركعتين في المسجد الأقصى، وقد تفاجأ بأن يوقفك شرطي إسرائيلي بمنعك من دخول بوابات المسجد التي تحولت إلى نقاط تفتيش ومراكز اعتقال.

هذه هي القدس اليوم، لا مسرح ولا مركز ثقافي ولا صالة عرض ولا مكتبة ولا حتى دكاكين عامرة ولا أسواق مزدحمة كما هي عادة القدس منذ أن كانت.

المحتل يستفرد بالقدس، حفراً ونبشاً وبناءً وهدماً وإضافة وحذفاً، بدأ ذلك في حارة المغاربة التي اختفت الآن، لصالح الحي اليهودي والحائط الغربي الذي يدعونه حائط المبكى، أما الحفر تحت المسجد الأقصى، فهي قصة أخرى، إذ ثبت أن ما يقام تحت المسجد الأقصى مدينة توراتية كاملة، هذا غير ما ينشر في الصحف والمجلات الدينية اليهودية المتطرفة عن استبدال الأقصى بالهيكل المزعوم. ورغم أن مئة عام من الحفر والتنقيب وبدعم من صناديق مالية ومراكز بحث متخصصة غربية تؤمن بالفكر القيامي والتدبيري ألا أن



ذلك كله لم يسفر عن دليل واحد يدعم أوهام التاريخ وتاريخ الأوهام الذي يؤمن به هؤلاء.

وأجدني أرغب في الإسترسال في الكلام عن القدس وهي تعيش أسوأ لحظات إحتلالها، فالفلسطينيون، من مسلمين ومسيحيين، ممنوعون من الدخول إليها أو زيارتها أو التعلم أو التعليم أو تلقي الخدمات الصحية، حتى أولئك الذين لهم زوجات وأطفال في القدس، فهم ممنوعون أيضا من الوصول إلى أسرهم، ومنذ أن أكمل المحتل بناء السور الأسمنتي حول القدس ووضع عليه بوابات ونقاط تفتيش، فقد فتّت النسيج الاجتماعي لقرى كثيرة مثل السواحرة والرام وعناتا وأبو ديس والعيسوية وبيت حنينا وغيرها. إن السور والحاجز ليس مفهوماً أمنياً أطلاقاً، إنه مفهوم اجتماعي ونفسي واقتصادي. إن تضييق المكان يعني تضيق الوعي، وإن تفتيت المكان يعني ميلاد كتل اجتماعية تختلف في تطورها وحتى في أهدافها. الحاجز والسور ونقطة التفتيش ومكعبات الأسمنت لها مدلولات أعمق مما يشيع المحتل حول دورها الأمني. المحتل يرغب في تفكيك جماعة الفلسطينيين إلى ذرات صغيرة وكتل بشرية يسهل التحكم بها والسيطرة عليها وضبط نشاطها وتوجهها. إن نظام المعازل والبانتوستونات هو نظام عنصري قطعاً لأنه يقوم على محاولة شيطانية في تفكيك الجماعة وانحلالها وعدم تطورها من خلال ربط كل

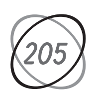


كتلة اجتماعية أو جغرافية بالاحتلال ربطاً عضوياً. إن شكل الدولة الفلسطينية التي يرغب الإسرائيليون بالعمل على أقامتها هي دولة تتكون من ست إلى سبع محافظات يفصل بينها بوابات الكترونية وطرق التفافية وكتل استيطانية، بحيث تتحول هذه الدولة مع الوقت إلى ست أو سبع «دول» متمايزة ومختلفة ومتناقضة. إن ما يقوله «الليكود» و«إسرائيل بيتنا» و«البيت اليهودي» وحتى حزب «كاديما لا» يختلف عن هذا الطرح. إسرائيل بيمينها ويسارها لا ترى قيام دولة فلسطينية حقيقية إلى جانبها إطلاقاً. ومن هنا نفهم أسلوب إسرائيل في إدارة أزمة الاحتلال وليس إنهاء الإحتلال. إسرائيل لا ترى في الشعب الفلسطيني شعباً متجانساً ولا تعامله على أنه جماعة لها حقوق سياسية، وإنما تعامله على أساس انه أفراد. ومن هنا نفهم ما تقوله دائماً حول التسهيلات والتنازلات وتحسين مستوى حياة الفلسطينيين. إنها تتحدث عن أفراد لهم مطالب وليس عن جماعة لها حقوق. ولكن المحتل عادة ما يكون غبياً أو واثقاً بنفسه إلى درجة الغباء، فالحركة الوطنية الفلسطينية ذات العراقة والتاريخ والتجربة، بالإضافة إلى التغيرات العميقة التي تحدث داخل الكيان المحتل ذاته، تجعل من هذه المحاولات مجرد محاولات تؤخر الاستقلال والحرية ولكنها لا تستطيع أن تمنع و صولها أو تحققها.

أسوق هذا الكلام كله للقول إن ما يسمى بشائعة التطبيع تبدو كالنكتة السمجة والسخيفة في خضم هذا الواقع، فهذه الشائعة وتحت أي تعريف لها انما تعني أمراً أقل من الخضوع والاستسلام ليس إلا.

فالتطبيع اياً يكن تعريفه السياسي أو الثقافي إنما هو في حقيقة الأمر يكون على الوجوه التالية:

إما التكيف أو التعايش مع المحتل بسبب الخضوع له ولمصالحه ولواقعه الذي يفرضه، أو بسبب عدم القدرة على رد المحتل أو كسره أو طرده أو فضحه أو مقاومته، ومن هنا يكون التطبيع أسوأ حتى من الاستسلام، لان في التطبيع نوعا من النشاط باتجاه المحتل، بحيث يشعر هذا أن المطبع يقوم بدور ما من تحسين أو تجميل المحتل. أن التكيف أو التعايش مع المحتل يفترض في المطبع أيضاً أن يغير أو يعدل من رؤيته للمحتل أو أن يبرر له أو يفسر مواقفه. إن التكيف أو التعايش مع المحتل يعني عملياً العيش مع الحق المنقوص والإرادة المنقوصة، ويترجم هذا المضمار من أنواع التطبيع في الاتفاقات السياسية العرجاء والمشوّهة أو التي تنقص من الحقوق ومن الثوابت، كما يترجم هذا النوع من التطبيع من خلال المواقف الدولية والاقليمية حيث نرى المطبعين لا يتخذون المواقف التي يجب أن تنسجم مع مصالح الشعوب، وأسوأ أنواع هذا التطبيع هو ما يحاك في الظلام من اتفاقات



وتكتلات محاور سرية، يكون فيها المحتل مركز هذا الاتفاق وهو المستفيد الوحيد منه. إن التكيف والتعايش مع الاحتلال هو شكل صاعق من أشكال الأزمة ومن أشكال الهزيمة أيضاً. وبالعودة الى الحروب الصليبية ، فإن فكرة مصانعة الفرنجة التي استمرت عدة عقود أدت فيما أدت إليه إلى أن تتفتت الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة بائسة تتقاتل فيما بينها، إلى درجة أن الإفرنجي كان في بعض الأحيان يلعب دوراً في توحيدها، وهو أمر يتكرر على أيامنا، وهو أمر وان كان يبعث في النفوس المرارة إلا أنه أيضا يبعث في النفوس الأمل، ذلك أن التعايش والتكيف مع العدو عادة ما ينكسر وينتهي، لان المحتل لا يقبل أن يتعايش مع أحد أطلاقاً. فالمحتل الإسرائيلي بالذات له من العقد النفسية المؤسسة على عقدة الاضطهاد وعقدة الضحية وعقدة التميز والعرق الخاص، ما يحوّله إلى كيان لا يمكن أن يرى إلا نفسه، وأن يعبد نفسه، وهو لهذه الأسباب لا يستطيع أن يتعايش أو يتكيف مع أي طرف مهما خضع هذا الطرف أو أعطى أو أظهر أيمانه وإخلاصه. إن عُقد المحتل النفسية تجعله يقبل قتل الآخرين واستغلالهم والنظر إليهم باحتقار شديد. إن هناك أطرافاً في المنطقة على علاقة ما بالمحتل منذ أكثر من ستين عاماً وثلاثين عاماً وعشرة أعوام، ولكن المحتل يهدد هذه الأطراف ويبتزها ويستغلها ويخوّنها أمام جماهيرها، فمرة

يهددها بالوطن البديل ومرة يخونها بمنعها من الوصول إلى الكونغرس، ومرة يخونها بالأقليات الدينية والاثنية، ومرة يهددها بالأمن الاقتصادي، ومرة يهددها بالجواسيس والتخريب الصناعي، ومرة يهددها بخلخلة الأمن الاجتماعي والصحي ، والمحتل في ذلك يعتقد أن على الطرف العربي أن يقدم حسن النية وأن تكون العلاقة كلها على حسابه، جزء من هذه النظرة نراه فيما يقال عن الشرق الأوسط الجديد الذي تكون فيه إسرائيل صاحبة الخبرة والتكنولوجيا والتخطيط ويكون فيه العرب أصحاب المال والأيدي العاملة والأسواق، وهذه فكرة تطبيعية سمجة بامتياز، فإسرائيل فيها تعرض خدماتها دون أن تتخلى عن احتلالها أو عن رؤيتها الكلية للمنطقة وشعوبها، وهي تعرض خدماتها من أجل أن تكون جزءاً من المنطقة بقوة المال وقوة السلاح، ومن الغريب أن من يعرض السلام الاقتصادي في التسعينيات رجل يدعي انه من اليسار الصهيوني، وأن مَنْ يعرض ذات السلام في العام ٢٠٠٩ رجل يدعي انه من اليمين المتطرف. لنلاحظ أن لا فرق اطلاقاً في التيار العام الصهيوني، فهو تيار لا يرى في المنطقة وشعوبها سوى أدوات لبلوغ أهدافها ليس إلا.

وإذا كان التكيف والتعايش مع المحتل سببه قوة المحتل ومَنْ يدعمه، فإن الاستسلام لهذه الفكرة تأتي من النخب أو تروج لها النخب أو مبادرات الشعوب وقواها وقاعها المجهول،



فإن مسألة هذا التكيف وهذا التعايش لا تجد صدى ولا ترجمة اُبداً. والشارع المصري خير مثال على ذلك، فهذا الشارع بفلاحيه وعماله ومثقفيه ونقاباته قال كلمته وانتهى الأمر. ومن عجائب الشعوب أنها قادرة على أن تحتفظ بصورتها عن نفسها دائماً وان تدافع عن تلك الصورة دائماً، ومن عجب أيضا أن صورة الشعوب عن نفسها عادة ما تكون ساطعة ومثالية، ولهذا فإن الشعوب لا تذوب، حتى تلك الأقليات والجماعات الاثنية الصغيرة التي بقيت رغم انهيار الحضارات الكبرى. هناك ما لا يزول، هناك ما يبقى رغم كل شيء. ان جماعة اليهود أو جماعات اليهود إن شئت هي مثال ضمن أمثلة عديدة ومختلفة على قوة صورة الجماعة عن ذاتها، ولهذا فإن التطبيع، بمعنى التعايش والتكيف قد يستمر لفترة ولكنه بالتأكيد سينتهي، لأنه ضد رؤيتنا لأنفسنا وحقوقنا ومشروعنا من جهة، ولأنه ضد البنية النفسية للمحتل ذاته الذي لا يطيق أحداً ولا يتعايش مع أحد. المحتل، أكان في العراق أو في فلسطين، ورغم كل شعاراته ودعاويه، فهو يعمل من أجل أمرين اثنين لا ثالث لهما:

مصالحه اولاً، ورغبته في تقليل خسائر هذا الاحتلال ثانياً، وما عدا ذلك فكلها أكاذيب تصلح للفضائيات ليس إلا.

وجه آخر من وجوه التطبيع يتمثل في تلك المنظومات الفكرية والاجتماعية التي تحملها وتروّج لها عادة طواقم

الكمبردور الثقافي الممولين جيداً، وفي الحقيقة فليس هناك مسافات أو فجوات بين هذا الكمبردور الثقافي وبين الرؤية السياسية الكليّة للمُمَوّل، ولكن هذا الكمبردور الذي سرعان ما يمتلك أو يؤسس منظمة غير حكومية يكون لها أذرع إعلامية وتأثيرات سياسية ولمعان صحفي وأعلامي، سرعان ما يبدأ في أطلاق تلك المنظومات الفكرية والاجتماعية، فمدينة القدس مدينة تعايش، وهي مدينة لله فقط، وهي بدلاً من أن تكون محتلة فهي تمتلئ بالنساء المعنفات أو متعاطي المخدرات، تماماً، كتلك الحملة التي وزعت الكتب على حواجز الاحتلال في الضفة، مع احترامنا للنوايا طبعاً.

هذا الكمبردور الثقافي المُمَوَّل عادةً ما يستند إلى القول إن استدراج الإنساني في العدو هو أمر صحيح، وإن محاولة الالتقاء بالمحتل في منتصف الطريق هو الحل، وإن التشارك أو الجدل أو الحوار سيؤدي إلى نتائج مرجوة. إنها ذات الأفكار التي طرحت في الهند وجنوب أفريقيا وفي أنغولا وفي اليمن وفي الجزائر. المشكلة أن هذه الأفكار محولة من الغرب ذاته، مع احترامنا وتقديرنا للنوايا والرؤى الحسنة. المشكلة هنا أن هذه الأفكار تأتي عن ضعف وعن قلة ثقة بالشعوب وقدرتها على الفعل والإبداع. أكثر من ذلك، هذا الكمبردور الثقافي – ومهما حاولنا أن نجمّله – فانه يعمل في اتجاه آخر خطير، إنه يقوم بمهمة التثبيط والتيئيس والتفكيك والخلخلة



الفكرية والاجتماعية وحتى السياسية، ولا نبالغ في ذلك أبداً، ومع أخذنا بعين الاعتبار أن سيادة الدول قد تم انتقاصها والمس بها من خلال ميلاد هيئات دولية عالية وقوانين عالمية تفرض على الدول الإيمان بها والعمل بها مثل حقوق الإنسان والبيئة والجندر وما إلى ذلك، فإن الكمبردور الثقافي والسياسي يلعب دوراً في عملية إنقاص سيادة الدول بذات الطريقة. وفيما يخص موضوعنا وهو القدس، فإن كثيراً من الهيئات والمؤسسات لا يمكن لها العمل دون أن تنسق مع مؤسسة أو هيئة شبيهة لها في الجانب الإسرائيلي، وهي لا تستطيع أن تعمل دون أن تثبت أن لا علاقة لها بدعم مَنْ تسمّيهم إرهابيين أو الإيمان بأطروحاتهم.

التطبيع هنا يتخذ اسم مؤسسة قد تُعنى بأمر بعيد عن الثقافة أو الفن، ولكنها جزء من تلك المنظومة الخطيرة الهادفة إلى أن تكون الرقيب والعين والأداة القادرة على أن تمسّ أو أن تصيب، ولا نقول هنا شيئاً يفهم منه أننا ضد مؤسسات المجتمع المدني، على الإطلاق من ذلك، إن مؤسسات المجتمع المدني هي مؤسسات تقوم على المبادرة والتمويل الذاتي، والأهم، تقوم على الرغبة الحقيقية في خدمة المجتمع إلى جوار الدولة، لا أن تكون مماحكة للدولة أو رديفاً لها أو بديلاً لها في اللحظة المناسبة كما يخطط المحتل عادة.

إن مثل هذا الكمبردور الثقافي هو المسئول عن ترويج أفكار ونشر برامج اللقاءات على المستويات المتعددة التي تبدأ من معسكرات الشباب وتنتهي بعقد المؤتمرات الكبيرة التي يشارك فيها كبار المثقفين والسياسيين، وهو المسئول عن إنتاج الأعمال الفنية والسينمائية التي يُقَدَّم فيها الآخر المحتل مقبولاً وإنسانياً، وهو المسؤول عن إنتاج الخطاب الإعلامي الذي يتحول فيه الآخر المحتل إلى وجهة نظر أخرى ليس إلا، هذا الكمبردور الممول يكتشف فجأة أن المحتل أو الآخر على أطلاقه مجرد رأي معاكس لا غير.. وبالتالي نتعود على إعلام يقتل المقاومة بسبب الموضوعية والمهنية.

وهذا الكمبردور قادر على الهجوم وقادر على الدفاع وقادر على التجنيد وقادر على الاصطفاف وقادر على التلميع وقادر على أن يشكل رافعة لمن يقف معه، وقادر على أن يعتّم على مَنْ لا يقف معه أو يؤيده، وهو مدعوم من الآخر المحتل ومن يقف معه، فإذا به محمي جيداً، حتى أن الدول فضلاً عن الشعوب لا تستطيع الاقتراب منه. في فلسطين، وفي ذروة الانتفاضة الأخيرة كانت هناك دعوات من هذا الكمبردور تدعو حقاً إلى الجنون، مثل التوقيع على بيانات ضد بعض أعمال المقاومة أو الخروج في مظاهرات تضامناً مع ضحايا تفجيرات حصلت في هذه المدينة الأوروبية أو تلك. الجنون في هذه الدعوات أن المدن الفلسطينية نفسها محاصرة ومهددة

وتعيش ما يشبه المجاعة. إن هذه الرفعة الأخلاقية المدعاة لا تفسير لها سوى أن هذا الكمبردور عنده من الادّعاء والكذب والتشويه ما يجعله يطلب من شعبه المحاصر أن يتضامن مع الشعب البريطاني في محنة التفجيرات التي ضربت لندن. مع العلم أننا ضد تفجيرات لندن وضد كل أشكال الإرهاب والعنف والكراهية.

يلقى هذا الكمبردور الدعم الكافي من النخب السياسية المتورطة فعلياً في الاتفاقات المنقوصة أو المشبوهة، وتتحول العلاقة بين الطرفين إلى علاقة خاصة إلى درجة أن هذا الكمبردور عادة ما يتلقى مكافأت مختلفة مثل الجوائز والتوزير والتمثيل واللمعان الصحفي والإعلامي. وتتحول البلد برمتها إلى أن يقودها مثل هؤلاء، أو أن يكون هؤلاء هم البلد أيضاً. إن نجاح الآخر أو المحتل أو كلاهما بتكوين نخبة مثل هذه في أي مجتمع يعني تحقق حلم هذا البلد. ولم يكن غريباً أبداً أن تحتوي الخطة التي وضعتها وزارة الخارجية الأميركية في عهد بوش الابن على بند صريح ينص على تسمين النخبة المثقفة في البلدان العربية المؤمنة بذات الأفكار والتوجهات، وليس غريباً على الخارجية الأمريكية العمل في ميدان الثقافة والفن والأدب، فالفضائح المدوية في الخمسينيات والستينيات وتورط أدباء كبار بها ما تزال في البال.

الكمبردور الثقافي هو الذي يقف وراء فضائيات تعدّل الصور النمطية وتغيّرها، والكمبردور الثقافي يقف وراء صحف ومجلات وأفلام، ووراء مؤسسات ومواقف واتجاهات، في فلسطين، وفي القدس، جزء من هذا، أكثر أو أقل. القدس التي يعلن عنها هذا العام أنها عاصمة للثقافة العربية ثم لا يستطيع أحد أن يصلها، ولا يستطيع أحد أن يقيم نشاطاً واحداً فيها، إنما تطرح السؤال الكبير الذي لا يريد أحد أن يطرحه، فهل نتكيف أو نتعايش مع القدس محتلة، ومن ثم نستغل هذا الوضع كما يستغله المحتل؟! لا أعرف الإجابة .. حتى الآن على الأقلّ؟!

كل ما أعرفه الآن أن لا أحد من الذين يزورون رام الله لا يستطيع زيارة القدس دون تصريح ودون أختام المحتل، أنا ضد التكيف وأنا ضد التعايش مع محتل، أنا لا أطيق أن أطرب لأغنية قاتلي، ولا يعنيني أن صالونه جميل ومرتب، ولا يعنيني أنه دقيق وعلمي وحريص وإداري ناجح، إن بيوتنا مهشمة كابية وحدائقنا مهملة، ولكن هذه البيوت هي التي نريد ولا نريد غيرها، ولا نسمح لأحد أن يمسّها. ولا أريد أن أحتفل بصالون عدوي أو قاتلي أو محتلي ولا أريد أن اشرب الشاي في حديقته، لا أريد على الإطلاق. أليس في الأمر بعض فانتازيا. العرب يحتفلون بثقافتهم في مدينة محتلة لا يمتلكون الوصول إليها.. أليس من الأجدر العمل من أجل



استعادتها أولاً.. ولكن هذا كلام كبير، أليس من الأجدر وضع سياسة اعتراضية تمنع محتلها من طرد مواطنيها؟! ليس من الصدفة أن تعمّق إسرائيل هجومها العنصري على مدينة القدس في الوقت الذي نحتفل فيه بالقدس عاصمة للثقافة!! إن أطرافاً عربية معنية تستطيع أن توقف المحتل عند حدّه بكلمة واحدة، نعم بكلمة واحدة. بالله عليكم، ألا يعود الكلام كله الآن بلا معنى حول الثقافة والاحتفال بها في مدينة تتغير كل يوم ؟؟

وعدنا جميعاً نتفرج عليها من خلال شاشات التلفزيون. إن خطورة التكيف أن نحتمل جميعاً فكرة ضياع المدن، سبته ومليلة والاسكندرون والقدس وجزر أخرى هنا وهناك . العادة والتعوّد عدو يجب قتله، التطبيع هو جزء من العادة والتعود.

المقاومة في مواجهة خطاب التطبيع والأزمة

ما يميز الخطاب العربي الرسمي أنه خطاب ينحو إلى التكيف والتعايش مع الهزائم والاحتلالات المختلفة، انه خطاب من السعة والمرونة والاحتيال بحيث يستطيع أن يقلب الحقائق ويزور الوقائع، ما يدفع إلى القول إن الخطاب المتكيف عادة هو خطاب كاذب ومخادع، لا يقرأ الواقع من جهة ولا يفسره ولا يحلله من جهة أخرى، لذا فإن الخطاب المتكيف عادة ما يكون تلفيقياً وتوفيقياً بطريقة مثيرة للشفقة أو الضحك أو البكاء أو كل هذا الأمور مجتمعة . يظهر التلفيق في هذا الخطاب من خلال تقديم نماذج متعددة المرجعيات ومتناقضة الأيدلوجيات، إلى درجة أن هذا الخطاب يحتمل كل شيء في ذات الوقت، ومن العجيب أن مثل هذه النماذج تقدم إلى الجماهير دون إحساس بالذنب أو الخطأ أو تبكيت الضمير، ومن العجب أيضا أن يقوم على تقديمها رجل الفكر والدين



والإعلام ورجل السياسة، لتشكيل فضاء سياسي ثقافي ناظم يكتسب شرعية بفعل قوة الروافع والمضخات الرسمية، ومن يتطوع معها إغواءً واغراءً ورغبة منها في الاندماج والكسب. وإذا كان التلفيق صفة الخطاب فإنه ينسحب على كل أمر آخر، فالتعليم يتراوح بين التلقين والتقليد وادعاء الإبداع والبحث، وتخطيط المدينة يضطرب ما بين العشوائية والتخطيط، وحتى العلاقة مع الجماهير، حيث تغيب الرؤية النهائية للتعامل مع الجمهور، فالديمقراطية إدعاء براق يستخدم حسب مقاييس ومعايير تكرس القمع، أو يعاد إنتاجها بطريقة غاية في الخداع والاحتيال، بحيث تتحول الديموقراطية – كمفهوم غربي له عراقة وتقاليد – إلى سلوك سياسي مخادع يتم من خلاله تثبيت مراكز القوى إياها، وهكذا يتحول مفهوم الديموقراطية إلى سيف يذبح حامله. الديموقراطية بالذات هي الوصفة الناجعة من أجل التفتيت والتفكيك بدلاً من ان تكون مفهوماً وأداة للاستقرار السياسي والاجتماعي، ذلك أن تلفيق المفهوم يؤدي إلى تلفيق التطبيق وبالتالي تلفيق النتائج.

ويظهر التوثيق في خطابنا الرسمي عندما يساوي بين الأخطاء، ويمارس عملية إيهام حقيقية بحيث تنتفي الفروق بين الأفعال وبين الرجال وبين الأفكار، وعندما تتم التسويات على قاعدة عمومية غامضة، وحين تغيب المحاسبة

والمكاشفة، وحين تحل المشكلات بطريقة عشائرية يستوي فيها الخطأ والصواب إلى درجة أن يتساوى الدم بفنجان القهوة، وهو أمر يتكرر في السياسة، حيث تتحول الأوطان إلى عقارات وليست رمز كرامة وعزّة. الخطاب التوفيقي هو خطاب مضحك وبائس في ذات الوقت، لأنه لا يبحث عن الإقناع بقدر رغبته في السلامة والتسويات التي لا تصح، هذا الخطاب لا يبحث عن الشرعية بقدر بحثه عن الإجماع المصطنع مهما كلف الثمن.

إن الخطاب المتعايش والمتكيف مع الهزيمة مستعيناً في ذلك بالتوفيق والتلفيق، هو خطاب أزمة بامتياز، هي أزمة التعامل مع الواقع، أزمة السؤال والتحدي، أزمة الهوية، أزمة الشرعية، وأزمة التنمية . هو خطاب أزمة لأنه خطاب تعايش مع الهزيمة، وهو خطاب تعايش مع الهزيمة لأنه خطاب أزمة، ولا يمكن تجاوز كل ذلك إلا بتجاوز الأزمة عن طريق رفض الهزيمة. إن صنع النصر والاستعداد له والتهيؤ لأسبابه وإنضاج ظروفه وشروطه هي عملية طويلة ومضنية ومجهدة، ولأنها كذلك، فإنها كفيلة بأن تفرز الخبيث من الطيب، الحقيقي من الزائف، عملية النصر بحد ذاتها عملية تنظف وتطهر وترمم، عملية النصر عملية لا تلفيقية ولا توفيقية، النصر انحياز حقيقي باتجاه مكان القوة الأصلية ومصادر الطاقة



التي عادة ما تغيب في خطاب الأزمة أو تُشَوه. وخطاب النصر واضح وبسيط، حتى شعاراته بسيطة وواضحة ومتواضعة، لا تقفز عن الواقع ولكنها تحلم بتغييره، ولا تزور الواقع ولكنها تطلب الانقلاب عليه. حتى لغة النصر، فهي لغة دقيقة لأنها تعرف ثقل الأثمان التي دفعت من أجل النصر، وهي لغة متواضعة لأنها تعرف معنى الوحدة وصعوبة العمل الذي تم إنجازه. وعلى عكس لغة التلفيق والتوفيق، التي فيها من الادعاء ما فيها، فإن لغة النصر مختصرة وتذهب مباشرة إلى مقاصدها وتسمي الأشياء باسمائها.

ونقول هذا الكلام كله، من أجل أن نقول إن خطابنا الرسمي الذي يتعايش ويتكيف مع الهزيمة، يستبعد كلياً خيار تحرير القدس، أليس هذا غريباً؟! أليس عدم الكلام عن التحرير تعايشاً مع الهزيمة وتكيفاً معها وقبولاً لها؟! . عندما نتحدث بلغة لا نؤمن بها ولا نصدقها، تتحول هذه اللغة إلى خيوط مرنة ولكنها غليظة وطويلة، حتى تكفي لتأليف حبكات ينقصها الصدق والصراحة والجرأة. وعندما لا نتحدث عن تحرير القدس التي تؤلف جوهر إيماننا فإننا نقوم بخيانة ما أو ما له طعم الخيانة، وعندما نقوم بتجميل الهزيمة أو التعايش معها، فإننا نخون حتى لغتنا . يجب الاعتراف بأننا مهزومون، وهو اعتراف لا يدعو إلى جلد الذات

بقدر استنهاضها، ولا يدعو إلى الإحباط بقدر الدعوة إلى فتح العينين إلى آخرهما لقراءة الواقع كما هو لا كما نريد أو كما نحلم. إن الاعتراف بالهزيمة خطوة أولى من خطوات الاعتراف بالواقع، فأوضاعنا ليست بخير، ومجتمعاتنا ليست بخير، وحكوماتنا ليست بخير، وثرواتنا ليست بخير. المشكلة هنا أن هذا الكلام يكاد يكون مكروراً ومبتذلاً، ويعرفه القاصي والداني، كلنا يعرف أن فلسطين محتلة، وان أراضي عربية كثيرة أخرى تعاني احتلالاً بشعاً وطويلاً، ويكاد بعض هذه الاحتلالات يتحول إلى واقعٍ لا يمكن حتى نقاشه، وهذا ما يؤلم على المستوى الشخصي إلى أبعد الحدود. القدس مثلاً تهوّد بوتيرة سريعة إلى درجة قد تتحول فيها الأوضاع إلى الحال الذي تعيشه سبته أو الاسكندرون، لا نريد فراديس مفقودة أخرى، ولا نريد أندلساً جديدة، لا نريد ان تكون الأمة التي تتعود الصفعات، لأن العادة والتعود تطبيع من نوع آخر. لا نريد أن نكون الأمة التي ضحكت من جهلها الأمم. أقول ذلك بدواعي الفخر الديني والقومي، وأقول ذلك باعتبار أن لنا رسالة حملناها ونشرناها وكانت خيراً على كل البشرية. وبعيداً عن استعراض تاريخي لعالمنا العربي منذ بدايات القرن الماضي وحتى يومنا، فإن أسباب هزائمنا المختلفة في الحرب والفكر والتنمية وبناء مجتمعات صحية، لم تتجاوز



سببين، أن عدونا قوي ومستعد وشره وصاحب خبرة طويلة، وأننا لم نكن على مستوى المواجهة، لم تكن هزيمتنا هزيمة طبقة أو فكر أو شخص أو جهة أو حزب أو فصيل، كانت هزيمة أمة كاملة، بالمناسبة، فإن أيامنا هذه، تشهد احتلالات وحصارات وهجومات لعدد من العواصم العربية، ولا نتحدث هنا عن القدس فقط، وبالمناسبة أيضاً، فإن عالمنا العربي في أيامنا هذه يشهد أسوأ فترات هزائمه، فالهزيمة وصلت إلى أن تسلب حتى إرادة الرغبة في الانفكاك من هذا الوضع، وأقول أسوأ فترات هزائمه لأن بعضنا صار يحارب بعضنا الأخر من أجل عدونا جميعاً، أي إننا وصلنا إلى وضع صرنا نموّل فيه حروب عدونا. وهذا من العجب العجاب.

إن تجاوز خطاب الأزمة لا بد له من مثال أو نموذج حي يستطيع ملء الفراغات وتقديم محتوى نظري وعملي للفكرة. كل الأفكار عظيمة دون تطبيق، وكل الأفكار قابلة للنقد عند تطبيقها، وبسبب الأزمة وما تجر من خيبات وعثرات فقد كان لنا ثلاثة نماذج قدم كل منها محاولة ما لتجاوز الأزمة. النموذج الأول كان جمال عبد الناصر، الذي تهيأت له من الظروف ما لم يتهيأ لأي قائد عربي في العصر الحديث، إذ تحول عبد الناصر إلى رمز أسطوري، وعلقت عليه الآمال والأحلام، ومستفيداً من الظروف الدولية والمزاج الشعبي في العالم

الثالث على الأقل، فإن عبد الناصر حاول أن يكون الحاضنة لثورات العالم العربي وما جاوره وصولاً إلى كيانية موحدة بشكل ما. وبغض النظر عن جدلنا مع الناصرية واخطائها وانجازاتها إلا أن هذه التجربة تم ضربها ومن ثم حصارها وأخيراً تجفيفها. نحن هنا لا نريد تقييم التجارب والنماذج التي نقدمها، لأن هدفنا هو مصير تلك النماذج والمحاولات. النموذج الثاني كان صدام حسين، الذي أراد أن يصنع تنمية بالحديد والنار، وأراد أن يقدم تجسيداً حياً لنظرية العادل المستبد، والذي أراد أن يتقدم إلى الجمهور كأنه صلاح الدين وبسمارك في آنٍ معاً، ولكن هذه التجربة أو هذا النموذج تم استخدامه وحصاره وضربه ومن ثم القضاء عليه. النموذج الثالث هو ياسر عرفات، الذي استطاع أن يؤسس لثورة اكتسحت العالم العربي في السبعينيات، ياسر عرفات الذي أراد أن يكون رمز الثوار ونهضة الشعوب، والذي أراد أن يكون ضمير العالم بعذابات شعبه، لم يحتمله الغرب أيضاً رغم كل شيء، فحاصره ومن ثم قتله. هذه نماذج ثلاثة تم ضربها بالقوة من قبل الغرب أو أدواته. هذا يعني أن هذه النماذج الثلاثة وبغض النظر عن حوارنا معها أو جدلنا حولها إلا أنها نماذج أرادت أن تتجاوز واقعها وسقوفها وشروطها. هل كانت مغامرة أكثر من اللازم؟ هل كانت حالمة أكثر من اللازم؟!



هل كانت مخدوعة أكثر من اللازم؟! مهما كانت الإجابة، إلا أن الغرب لم يحتمل هذه النماذج حتى لو هادنت أو دخلت تسويات أو حتى تواطأت على نحو ما.

وبالاستقراء ليس إلا، فإننا نتوقع أن يكون النموذج الرابع مختلفاً عن حديدية صدام، وتوفيقية عبد الناصر، ومرونة عرفات، ونتوقع أن يواجه هذا النموذج صعوبات أكثر، لأن الغرب سيكون أكثر تنبهاً ويقظة، وسيواجه هذا النموذج منظمات غير حكومية لا تخضع للدولة، وخطاب تطبيع يقبل الهزيمة ويستغلها، وحكومات تخون شعوبها، واحتلالات مباشرة كثيرة، أكثر من الحالية.

نموذجنا الرابع لن يتعايش مع الهزيمة لأن العيش مع الهزيمة موت محقق ومخزٍ، ولأن التكيف الذي يسمى تطبيعاً هو أكثر رداءة من الاستسلام، لأن الاستسلام لا يفترض القبول بالمحتل، أما التطبيع أو التكيف فهو القبول بالمحتل وجوداً ورواية ومصالح وأوهام.

نموذجنا الرابع القادم سيرفض لغة الغموض والمرونة والفصاحة، لأنه سيستعمل لغة بسيطة وواضحة وضوح الشمس، يقول فيها إن الاحتلال يجب أن ينتهي وان التعايش معه أو التكيف له، إنما هو إطالة لعمره ومشاركة في أبقائه.



قد تطول المدة حتى يأتي هذا النموذج، لأن الغرب لم يعد يكتفي بإدارة الأمور من وراء البحار، الغرب صار يأتي إلى هنا، ويتواجد بين ظهرانينا، ولم يعد يطلب وكلاء سريين، بل صار من الوقاحة بحيث يطلب وكلاء علنيين يقبضون أجرتهم أمام كل الناس وأمام عدسات الكاميرا. لهذا قد تطول المدة التي يتخلق فيها النموذج الرابع المختلف.

ونقول تطبيع، هذا اصطلاح غير دقيق للقبول بالاستسلام، التطبيع هو التكيف مع الاحتلال ومع مصالح الاحتلال ومع حلم الاحتلال المتعدد والمختلف بتسميات كثيرة. عندما نقول تطبيع، فإننا عملياً نقول الرضا والخضوع والحياة تحت سقف القوي المحتل.

التطبيع هو مطلب القوي وليس مطلب الضعيف. ولهذا عادة ما يحشر الضعيف في زاوية الدفاع عن النفس وشرح الدوافع والأسباب، وبهذا يتحول الضعيف إلى ضحية لا يصدقها أحد ولا يحترمها احد. خطاب الضحية الضعيفة خطاب أزمة حقيقية فهو لا يستطيع أن يقنع حتى نفسه، ولهذا كان التطبيع مطلب القوي لان هذا المطلب يتضمن ضمن أشياء أخرى قبول شرط القوي ومطالبه. والتطبيع هنا قبول رواية الآخر كما قيل، فإن رواية الآخر عن نفسه أرفع من أن تكون مطلب القوي هنا للضعيف، بل، وببساطة، فإن التطبيع



المطلوب هو عدم الثورة وعدم الاحتجاج والقبول بالتحول إلى مجرد كائن حي، كل فضيلته انه يستهلك الطعام ويخرجه.

خطاب الأزمة يقبل التطبيع ويرفضه، ذلك أن خطاب الأزمة يتجاور فيه كل شيء مع كل شيء آخر، وهذا من أشد الأمراض وأسوأها. والمحتل الذي يتابع ويدرس ويبحث، يعرف أننا في لحظات سوء حقيقي، ولهذا، فقد بلغ من الوقاحة والصلف والغطرسة أن يفرض معادلة مذلة تقول التطبيع مقابل التجميد. إلى هنا نصل، أن يقبض المحتل الثمن مقدماً من اجل أن يعد بشيء قد لا يحصل لأي سبب. التطبيع بمعنى أسوأ من الاستسلام، من أجل أن يتوقف عن عمل غير قانوني وغير شرعي. إلى هنا يصل بنا خطاب الأزمة. والى هنا يصل بنا غياب النماذج.

عن القدس عاصمة للثقافة .. والتطبيع

للقدس عدةُ أسماء، لكن المُظلم منها هو الاسم الذي يردده الاحتلال .

ونرى القدسَ عن كثب، حيث الجدرانُ والأسلاك الشائكة تمنعنا، منذ «أوسلو» من الدخول إليها! لقد أعطى السلامُ الجنائزيُ المدينةَ للاحتلال، وأعطانا الحسرةَ والهباءَ والإستيطان.

ونمرُّ من بعيد عنها، فنقول : إنه حلمُ سيءُ يا قدسنا. ونكاد نصرخ من قهرنا: ضعفُكَ يا أبي هو الذي قاد المدينةَ إلى الموت.

القدسُ حلمُ عصيٌّ لا يمكنُ أن يتحقق حتى نصحو، ولن يتمَّ لنا ذلك، بعد واحد وأربعين عاماً من احتلالها، بهذا الاستدراك المتأخر الشكلاني، الذي يسمّى (القدس عاصمة للثقافة العربية)، والاكتفاء باحتفالات غنائية موسمية أو ببعض الفعاليات بعيداً عن المدينة.



وعلى الرغم من أهمية كل حراك وفعل يعمل على إنهاض القدس وإحضارها وإضاءتها، لكن المطلوب شيء أكثر اتساعاً وتواصلاً وعمقاً وامكانيات. ففي الوقت الذي تَصبّ فيه الحركاتُ الصهيونية المؤيدة لاسرائيل أكثرَ من عشرة مليارات دولار سنوياً لتهويد المدينة المقدسة، فإن السلطة الفلسطينية، التي تعتمد على دعم الآخرين، لا تستطيع أن تقدّم أكثرَ من مئات الآلاف سنوياً، عدا عن أن الدعم العربي والاسلامي لا يرقى الى ما يجابه عمليات التهويد، هذا إذا كان ثمة دعم للقدس أصلاً.

بمعنى أن القدس تحتاج إلى مؤسسة مختصة، لها استطالاتها داخل فلسطين وخارجها، والى ملايين الدولارات، وإلى مختصين أكفاء، يحرصون على متابعة كل ما جرى ويجري في المدينة المقدسة، على الصعيد العمراني والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي والديني والديمغرافي.. الخ، وملاحقة كل إجراءات الإحتلال من استيطان وجدران وحفريات ومصادرة وإحلال وقوانين وهضم جغرافي وسكاني وصحي وتعليمي وإلحاق اقتصادي، وما إلى ذلك..

إن ذلك يستدعي توفير خبراء، والانكباب على آخر ما يحدث وما يصدر في القدس وحولها، حتى يصبح المواطن الفلسطيني والعربي والعالمي على اطلاع بما يدور ويُخَطط لهذه المدينة.

كما يعني ذلك توفير الآليات المناسبة لتدعيم الوجود العربي في القدس، عبر طرائق تُمكّن المواطن من الثبات والرباط ومجابهة الاستلاب والتغريب والتماهي مع الاحتلال، وكذلك ما يُمَكّن المواطن من إحداث مواجهة يصعبُ معها على المحتل، أن يقوم بكل تلك الأَسْرَلة المخيفة التي أحدثت بالمدينة الكثير، وخلقت العدمية القومية في أحشائها.

ولعلنا مع كلّ ما يُظْهرُ القدس ويجعلها محروسةً في الوعي والحلم، ونابضةً في المدارك الطالعة، شرط أن لا يكون ذلك موسمياً أو تعويضياً أو تغطيةً على تقصير جارح .

ولعل النوايا الطيبّة للقائمين على «القدس عاصمة للثقافة العربية»، تدفعني للتنويه إلى وجوب تخليق جواب على سؤال الغياب الهائل، للنشاط الثقافي في فلسطين، باستثناء المركز، الذي يعاني هو أيضاً، من عدم وجود إستراتيجية عمل ثقافي، وكذلك عدم وجود مجلة ثقافية واحدة، وعدم وجود البُنى التحتية للفنون والثقافة، وعدم وجود قوانين للتفرّغ والبحث والجوائز والنشر، كما ينبغي إيجاد ردّ على عدم إشراك اتحاد الكُتّاب ورابطة الفنانين التشكيليين والمسرحيين والأكاديميين، بل إن هذه المؤسسات مُغلقة ومشلولة، لعدم صرف موازنات لها ! فكيف سنحتفل بالقدس وسط كل هذا الغياب وعدم الاهتمام، منذ سنوات، بالثقافة والفنون، بل وإدارة الظهر للإبداع وللقائمين عليه؟



وبالرغم من كل ذلك، فإن المجموعة المُخلصة، التي تعمل ليل نهار، في مبنى الهلال الأحمر الفلسطيني، بمدينة البيرة، تستحق أن نتمنّى لها كل نجاح وتوفيق، على أن ينتبهوا إلى أنّ إيجاد رافعة للقدس، يستدعي من المسؤولين، بلورة رؤية شمولية، تتجاوز الإرتجال والخلط والتجاوز والموسمية والاستبدال والاستئثار.

كما أننا مع دعم كل أشقائنا العرب والمسلمين للقدس، لأنهم أصحابُ هذه المدينة وآباؤها الأوّلون واللاحقون، فالقدس ليست ملكاً للفلسطينيين، وليسوا وحدهم المكلّفين بحمايتها والحفاظ عليها، وهذا يستدعي، من قبل أشقائنا العرب، معرفة أمر غاية في الخطورة، وهو المجيء إلى القدس بحجة الاحتفال بالقدس، بوساطة تأشيرة من إحدى سفارات دولة الاحتلال (اسرائيل)، وبدعوى أنَّ زيارة القدس هو دعمٌ للأشقاء الفلسطينيين ! إنَّ الترويج لهذه الذريعة المشبوهة هو تكريسٌ الإحتلال الإسرائيلي لمدينة القدس العربية، التي لا يستطيع الفلسطينيون أنفسهم الدخول اليها، كما أنَّ الزيارة تتيحُ للاحتلال جذب المثقفين والفنانين العرب للتطبيع معهم عبر سفاراته، ما يعني الإعتراف بهذه السفارات وبشرعية ملكية الاحتلال للقدس، حيث أن القاعدة القانونية والسياسية تقول بأن مالك الأرض هو الذي يُعطي التصريح لزيارتها أو التجول فيها. كما أن الاحتلال لن يسمحَ بإقامة أية فعالية في



القدس الشريف، فأين سيأتي الأشقاء العرب وماذا سيفعلون؟ إنهم مدعووّن لتكثيف الفعّاليات بأسم القدس في أقطارهم.

كما أن الأمرَ المشروع لزيارة فلسطين، هو الحصولُ على تصريح تجترحُه المؤسسة الفلسطينية الرسمية، ما يعني فقدان الإحتلال للقدرة على ختم أو مَهْر جواز السفر العربي بخاتمه البغيض، عندها تكون زيارة الشقيق العربيّ «للسجين الفلسطيني» دعماً حقيقياً، تحملُ بعض المعاني الوجيهة والمعقولة.

أما قول بعضهم، بأن مجيء العربيّ، ولو بإذن إسرائيلي، هو كالذي يزور إبنه في الزنزانة أو المعتقل، فإنَّ التعقيب على هذا القول، لا يتجاوزُ إقرار البديهية المعروفة؛ وهي أن الشعب العربيّ الفلسطيني منذ أكثر من ستين عاماً وهو في سجنه! فلماذا الآن تنبغي زيارته؟ وهل يحقّ للأخ العربي أن يضع نفسه موضع الفلسطيني، الذي يفرض عليه الاحتلال كل شيء تقريباً !؟ بمعنى أن العلاقة بين الفلسطيني والإسرائيلي هي علاقة قسرية يفرضها الاحتلال بالقوة، وهي تشبهُ علاقة السجّان بالسجين والضحية بالجلاد والجندي على الحاجز بالمواطن الذي ينتظر، وبالتالي فإن الفلسطيني (صاحب الشأن) لا يملكُ أن يستورد شيئاً إلا عبر الاحتلال، ولا يستطيع التنقّل إلا بإذن من الجنود، ولا يستطيع أن يسافر الا بختم المعبر الذي يسيطر عليه الاحتلال، وبالتالي فإن المقاربة بين

العربيّ (الحُرّ) والفلسطيني (الرازحِ تحت القيود) هي مُقاربة ساذجة أو مشبوهه ولا تجوز أصلاً. وإن أي قدوم الى فلسطين عبر التعاطي والإعتراف بمؤسسات الاحتلال هو تطبيع كافر، يكرّس المدينةَ ثانيةً للدولة العبرية.

إننا نتوجه بالشكر والعرفان، لكل مثقفي وفناني ومبدعي أمّتنا العربية الواحدة، على كل ما خلقوا من إبداع، وقدّموا من تضحيات، ونخصُّ بالذكر ذلك الموقف العظيم والعالي والحاسم المُواجه للتطبيع بكل اشكاله ومكوناته وصوره. وإنّنا على يقين، أن أشقاءنا العرب يتقدمون علينا في العمل، لتبقى القدس مدينة عربية، والى يوم يبعثون.

ظلَّ أن نشير إلى أن الأشقاء العرب مدعوون إلى عدم التقيّد بالخطاب السياسي او الإعلامي، لبعض المسؤولين الذين، ربما، نختلف معهم، أو لا يُعبّرون عن وجهة نظر المثقفين، أو أنهم يعيشون تحت وطأة موازين القوى أو الإشتراطات السياسيّة المرحلية، وتجعل موقفهم غير مُلزم للمثقفين، الذين يحرسون الثوابت والمبادئ والأحلام.

الخطاب الثقافي وضرورة تأبيد المفهوم

هل استطاع العربُ تحويلَ أكبر مَظْلمَة تاريخية، وأعظم كارثة حلّت بالشعب الفلسطيني، إلى ذُخْرٍ نفسي لا ينتهي، ومُلك أخلاقي يدينون به العالم كله؟!

وَهل حوّلنا كارثة الطرد والإبعاد إلى حادثٍ كوني يُؤَرَّخ به لبداية جديدة ؟! أم أن هذه النكبة كانت ذروة حملة غربية استعمارية جديدة بدأت في بداية القرن التاسع عشر، ولم تنته حتى هذه اللحظات ؟! وبكلمات أشدّ وضوحاً وأكثر إيلاماً، ألم تكن النكبة ومن ثم سقوط القدس والنكسة ذروة انتصارالغرب وفكره وآلته وجنده علينا نحن العرب والمسلمين ؟!

هذه الحملة الجديدة التي استفادت من كل الحملات السابقة، لم تستعمل الحديد فقط، إنما استعملت المنهج الفكري والادبي أيضا ،من اجل إقناعنا بأنّ تاريخنا مجرد

حروب عشائر، وأنّ حضارتنا مجرد رحلة أخروية ، وأنّ مساهمتنا في التاريخ البشري ليس إلا مساهمة المترجمين والنقلة . حملة أرادت وما زالت تريد أن تقنعنا بتفاهة تاريخنا وهامشيته وعدم حضوره ، وهي حملة ما زالت تريد تلقيننا، ليس المنهج فقط، وإنما استخلاصاته أيضاً.

وتحت هذا المدخل، نعيد السؤال: هل استطعنا الاحتفال والاحتفاء بالنكبة على مستوى الخطاب الثقافي؟ ، وهل نقلنا هذه الكارثة من تاريخيتها إلى وجدانيتها، ومن محليتها الى عالميتها، أو من ظروفها السياسية الى أَبعادها الكونية؟! هل عمّمناها على الوعي لتتحول الى نُدبة أخلاقية في جبين الضمير الانساني الصامت؟! وأخيراً هل اعترف العالم بذلك ؟! أم أنّ العَالَم لا يعترف للمهزوم حتى بممتلكاته الروحية والوجدانية ؟! وهل الضعيف لايملك حتى إقناع نفسه بحزنه ودموعه ؟!

إنّ خطابنا الثقافي العربي والإسلامي مدعوّ إلى تأبيد هذه الكارثة، لأنّ طرد الشعب الفلسطيني من أرضه واحتلال بيت مقدسه كان وما يزال يعني موت تاريخ وبداية تاريخ آخر. وفي كل مرة كانت تسقط فيها القدسُ بيد غازٍ أو مغامر او مجنون، يتغير التاريخ ويتغير مسار الحضارة ،

إذن فهذه كارثة سرمدية ! وإن ذهاب خطابنا الثقافي الى مناطق العتمة والعبث والتغريب والتطبيع.. معناه طمس الحادث الأهم والكارثة الأعظم . وإذا كان خطابنا الثقافي اليوم يفتعل الحروب ويختلق الاصطفافات، ويؤلّف أوهاماً أو حقائق ليبرالية وأصولية، أو دعوات مجتمعية متعددة ومتضاربة، فإن سبب ذلك كله هو ضياع القدس، الذي أتى معه بكل موبقات الحكم والحكّام، وبكل تشوّهات المجتمع وبنيته الفوقية .

ألهزيمة لا تاتي دفعة واحدة، إنها تتراكم حتى تفيض بأبغض وأسوأ النتائج. والنصرُ تطهير وتطهّر. عملية النصر هي الأتون الذي يذيب ما ترهّل وما خبث وما زاد عن الحاجة .

وإن خطابنا الثقافي العربي مدعوٌ اليوم إلى تحديد أولوياته وتحديد أعدائه، فالعدو ليس الخصم الداخلي او المختلف مهما بلغت درجة الاختلاف معه ، وهو بالتاكيد ليس من لم نتفق وإياه على مسألة فقهية هنا أو تفصيل هناك ، وليس هو من لم يشاطرنا رؤيتنا الفكرية. والصديق ليس هو من يلوّح لنا بالجنّة على الأرض، وليس هو من يريد إقناعنا بحريّات ضيقة تقوم على الطائفة أو العِرق، وليس هو أيضا من يموّل مشاريع تخدمه أصلاً وتدمّرنا بالتدريج الممل.



إن عدونا واضح وصديقنا كذلك. ولكن من قال إن عملية تحديد الأعداء والأصدقاء سهلة في ظل هزيمه تغطّينا جميعاً؟.

إن خطابنا الثقافي اليوم، وارتباط معظمه بالمؤسسة الرسمية، يجعل منه ظِلاً باهتاً غير اصيل أو مقنع ، ولهذا يدخل في معارك متوهّمة، ويساجل على أراضٍ بعيدة وتختلط عليه وجوه الاعداء والاصدقاء.

إن هذا الخطاب الذي تقع عليه مسؤولية التنمية والتحرر والتحرير، والذي لا يستطيع الفكاك من ازدواجية دوره الاجتماعي ودوره التحرري، يجد نفسه، كلما تقدم الزمن، بيتعد أكثر فأكثر عن الانشغال بالقضية المركزية الأم، بسبب هزائم النخب السياسية والاقتصادية، وانجرارها وراء مخططات أكبر منها، أو انسجامها مع الإشتراطات المريبة .

مرّة اخرى تواجهنا الهزيمة التي تدعونا الى الإنغماس في العبث واللاجدوى، أو التهالك على حلول فنية وثقافية أسهل كالنصوص التي تصطدم بالحائط. ولعل نظرة واحدة على ما يُنشر او يُبث سيرينا حجم الفجيعة من جهة، والهزيمة من جهة اخرى .

إن نكبة فلسطين ونكستها وضياع قدسها، لم تقع على كاهل الشعب الفلسطيني فحسب، بل إن الحملة الغربية

الجديدة توزّعت على منطقتنا العربية، فجعلت في كل قطرٍ نكبة، وفي كل أمة جديدة مُغايرة نكسة، وانشغل كلٌّ اصحابَ نكبة بنكبتهم، ونكسة بنكستهم. ولهذا فإنني أرى أن تأبيد الكلام عن مفهوم النكبة أو الاقتلاع أو الاحتلال هو تأبيد الاتهام لعقلية الغطرسة والعنجهية والعنصرية .

إن نكبتنا ونكستنا جميعا ليست بضياع الأرض فقط، وإنما بالتأخر والتخلف والتصحر والتوترات العرقية والإثنية والمذهبية والفجوات بين النخب والجماهير وتراجع العلم والمعرفة والنشر، وتواري الخطاب الثقافي الفوقي الى مناطق الظل والمُعتم والذاتي والإيروتيك والهمس، والى العُري والتغريب والعدمية .

إن تعميم مفهوم النكبة أو النكسة وتأبيده وتحويله الى ندبة أخلاقية في جبين العالم لا يعني أبداً الدموع أو التذكر أو التعلّق برموز النوستالجيا المرضيّة، بل مواجهة الهزيمة وأسبابها ومقوماتها ودراستها، والتخلّي عن أدوار الفرسان والحالمين. وكأني لا أتحدث هنا عن واقعية المهزومين أو منطقهم الطيّع المرن ! بل أتحدث عن واقعية القراءة والتحليل، وواقعية الحلول المؤسَسة على إرادة صادقة بتجاوز الهزيمة ومسبباتها وشروطها. الواقعية ليست عيبا إلا اذا كانت ذريعة



لجعلنا ضحايا سلبيين، أو إذا كان منشأها قلب جبان أو فكر متعاون.

إن تعميم مفهوم النكبة بكل مستوياتها على العالم، وجعله مفهوماً يخجل منه اؤلئك الذين يريدون تعليمنا الديموقراطية والجِنْدر وحقوق الانسان، ويربك أولئك المؤمنين بنظريات الأعراق وسباق الديانات وصراع الحضارات، يعني أن نقوم جميعاً بتحويل ذكرياتنا الى أفعال حقيقية، وتحويل دموعنا الى خطط، وقلب مفاهيمنا الثقافية من مجرد المشابهة والتقليد، لنيل الرضى، الى أهداف تنبع من واقعنا لتخدم واقعنا.

المهزوم أو المنكوس يقلّد فلا يجيد ولا يصيب ولا يصل، والمنكوب المهزوم يفقد أهدافه، ولا يحترم حتى ذكرياته ولا يقدسها. ولكننا في فلسطين، ذلك الشعب الصامد المرابط، لا يعيش ذكرياته فقط ، وإنما عليه ان يواصل صنع تاريخه حتى يتجلّى كاملا على ارضه، أي أن يعيش تاريخه ويكتبه في آن واحد .

إن الخطاب الثقافي- مهما تعددت اشكاله ومضامينه - لا يعني شيئاً دون الجهد والعمل، لأنّ الثقافة، في تعريفها الأخير، هي العمل والتفاعل، بهدف تكريس الثوابت وحراسة

الأحلام والتطلعات الكبرى والقيم المطلقة، وتأصيل مدارك الأجيال الطالعة بكل ذلك، عبر المؤسستين الرسمية والأهلية، وما يُنتج الفرد والمجتمع من خطابٍ و أفكار ومعارف .

وإن خطاباً ثقافيا اختار أن يقف على الرصيف، فأنه بالتأكيد لن يستطيع إدراك الماضي وتحديد المخاطر والانتصار عليها،لأنه ببساطة توقف عن العقل والعمل. وخطابنا الثقافي العربي والإسلامي – مع استثناءات قليلة – يشبه حالتنا المنكوبة ، ولا يختلف عن واقع نكستنا كثيرا . بمعنى أن فعل الغرب الاستعماري، الهادف إلى بقائنا في حالة ضياع وتشظية وعدمية وجهل واستلاب وتغريب وصدام، قد نجح إلى حدّ كبير، ليس لأنه استراتيجي ومتواصل وشمولي ومدعوم فحسب، بل لاننا لم نخلق النظرية القادرة على خلق فعل أكبر لاستيعاب و مواجهة تلك الاستراتيجية، وأعني على الأقل، خلق فعل ثقافي فكري يكون قادراً على تعرية المؤامرة ومكوناتها وأطرافها، وتأصيل وإنهاض عوامل البقاء والوحدة والهوية والانتماء والحضور، على أرض التعددية الطبيعية التي تُثري، وعلى مبدأ التجريب والحداثة المتصلة بالأصل والجذر، ومن منظور النقد باعتباره حالة دائمة وهدفاً



تصحيحياً، بعيداً عن الإعدام أو الإتهام أو الوقوع في مقولات الإستشراق، أو تبني الأفكار الجاهزة أو المعدّة سلفاً .

غير أننا نرى أن حالة الوعي العام المخزون في شوارع محيطنا العربي، والآتية من ثورة الإتصالات والمعرفة والقمع والإحتلالات والنهب، قد إرتفع منسوبها، وصرنا نلاحظ بعض الإشارات التي توحي بأن شعوب أمّتنا باتت تدرك المعادلة جيداً، وبأن نتوءات إنفجارها تنبئ بأن إنقلاباً كبيراً سيشهده الشارع العربي، ولو بعد حين.

الثقافة والنكبة، النكسة، المخيم!

النكبة التي لحقت بالشعب الفلسطيني العام ١٩٤٨هي الذروة لعصر الاستعمار الاوروبي الكلاسيكي الذي انحسر في القارات الخمس بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت إسرائيل التي قامت في نهاية تلك الحرب هي نتاج انقلاب التاريخ وانعطافه. في انقلابات التاريخ وانعطافاته الدراماتيكية تظهر شعوب جديدة ودول جديدة وافكار جديدة. الحرب العالمية الثانية التي انهت الاستعمار الابيض الاوروبي القديم بشكل او بآخر، كانت هي المسرح السياسي والعقائدي الذي استغلته الحركة الصهيونية ومن يدعمها علناً وسراً، اقليمياً ودولياً، لتقيم لها وطناً على حساب الشعب الفلسطيني وعلى حساب ارضه ووجوده وانجازاته وجذوره وثقافته، وهكذا كانت النكبة في معناها البسيط والمباشر، الاقتلاع والطرد ومن ثم الإحلال. النكبة هي اقتلاع شعب وطرده من ارضه بالقوة، ولكنها ايضاً إحلال شعب مكان آخر. إن هذه الكلمات على مباشرتها وبساطتها وامكانية فهمها، هي ببساطة ايضاً

جريمة إنسانية بكامل المعاني والمفاهيم والمعايير. ولأن النكبة حدثت او وقعت في التاريخ، أي يمكن رصدها و توثيقها، او لأنها حدثت دون ضجيج، او لأنها حدثت ثم تَم استيعابها من العالم، او لأنها حدثت دون أن تتحول إلى حدث فريد في التاريخ، او لأن العالم الغربي الاستعماري نظر إلى ما حدث باعتباره جزءاً من العقيدة والسلوك الابيض الاستعماري، فإن النكبة بهذا المعنى، تحولت بقدرة قادر إلى قضية إنسانية وفرّغت من معانيها الكارثية والأخلاقية، تحولت النكبة في عرف المستعمِر – على انواعه – إلى مشكلة جوعى وعراة، ولهذا او لأن هذا كذلك، فقد تم تفريغ قرار ١٩٤ من مضامينه كلها، وتحولت الحقوق إلى مصالح، واستبدلت المبادىء بترجمتها، وبدلاً عن الحديث عن جماعة ذات حقوق لا يمكن الانتقاص منها صار الحديث يجري عن تنفيذ الممكن منها، وهذا «الممكن» عادة ما يضيق ويقل كلما تقدمنا في الزمن . المستعمِر عادة ما لا يؤمن بالمطلق، والمستعمِر عادة ما يضيق بالقوانين الثابتة. المستعمِر ظرفيّ واستثنائي، ولهذا فهو يبحث عن الظرفي والاستثنائي دائماً في كل شيء.

النكبة هي إسرائيل التي قامت على أرضنا، ومعها كل ذلك الإرث الاستعماري الابيض، لا يمكن للصهيونية إن تنكر كونها إرثاً استعمارياً أبيض، الصهيونية التي تحاول الادّعاء انها ثورة على الاستعمار والكراهية والفوبيا والتمييز وعُقَد المرض والتوهّم. هي ببساطة جزء من هذه المنظومة التي سقطت ذات يوم، المستعمِر يسقط لانه يتآكل من الداخل،

ولإنه يخسر دائماً، ولأنه لا يستطيع توليف حكايته كل يوم ومن ثم يجد مبرراتها ومسوغاتها، الاحتلال بقدر قابليته للسقوط والتآكل بقدر كونه مكلفاً ليس لمن يقع عليهم الاحتلال وإنما لأولئك الذين يقومون بفعل الإحتلال، ومن هنا كان الاحتلال آيلاً للسقوط دائماً، مزعزع الاركان دائماً، لا يجد ولا يمكن إن يجد راحة او أمناً او طمأنينة، حتى تلك الأنواع من الإحتلالات التي كانت في أراضٍ بعيدة وشعوب بدائية. إن تلك الدوافع التي أهابت بالرئيس الامريكي كارتر ومن ثم كلينتون لاستقبال ممثلي الهنود الحمر في البيت الابيض هي ذات الدوافع التي نرصدها في نفس أي لص مهما بلغ ذلك اللص من مواقع او إنجازات. لا يمكن قتل الحقائق. ولا يمكن الإلتفاف عليها، ولا يمكن تزييفها، نحن هنا نتحدث عن قوانين وليس مجرد تمنيات او تخمينات.

النكبة هي الخيانة ايضاً، إن درس النكبة من نواحيها المختلفة، ومن مصادر مختلفة، ومن وجهات نظر مختلفة، تفزعنا تماماً كما حدثت أول مرة، لقد حدثت النكبة ليس لأن الصهاينة كانوا اقوى او اكثر عدداً او احسن تجهيزاً او أدقّ خططاً وتخطيطاً، بالعكس من ذلك تماماً، كانوا أضعف منا، واقل عدداً، واكثر خوفاً، واكثر فرقة، وهذا الكلام لا نقوله بدون إثبات او برهان، لنقرأ ما كتبه مؤرخوهم عن تلك الفترة، وسترى العجب العجاب، ستجد أن النخبة العربية، النخبة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت نخبة مريضة ومشوهة مرتبطة، كانت نخبة عميلة، بأقسى ما



في الكلمة من معنى. الجيوش السبعة التي قيل إنها قاتلت على أرض فلسطين لم تُقاتل الصهاينة ولم تتصدّ للهجاناه أبداً، الجيوش السبعة كانت تترصد بعضها البعض، وتنفذ سياسات متشككة ومتوجسة، كانت الجيوش السبعة تعبيراً عن انقسام العالم العربي وتعدد اتجاهاته، ولهذا لم يكن من العجب أن لا يسقط من تلك الجيوش مجتمعة اكثر من ٦٥٠ شهيداً، نحن هنا لا نتحدث عن الجماهير التي كانت على استعداد لفعل العجائب - وبالمناسبة فإن القادة العرب في تلك الاثناء طلبوا من الشعب الفلسطيني إن لا يشارك في ما أسموه بالعمليات، وذلك من أجل تحييد تلك الجماهير، تحييد الجماهير ظلّ تكتيكاً متبعاً في الحروب العربية باستثناء العدوان الثلاثي على مصر العام ١٩٥٦ - نحن هنا نتحدث عن النخبة المعطوبة التي لم تستطع أن تحتمل التاريخ ولا انعطافه. كانت النكبة بهذا المعنى، هي الخيانة. في بعض الاحيان أرى أن الهزيمة هي خيانة بشكل من الاشكال.

والنكبة حلقة من حلقات الغزو الغربي الاستعماري الصليبي، اذ لا يمكنني أن أفصل بين موجات الغزو الإفرنجي وبين موجة الاستعمار الصهيوني على بلادنا، الصهاينة هم غرب، هم علمانيون، هم متدينون، يأخذون دعمهم من الغرب ويتلقّون أموالهم وعتادهم من الغرب، والغرب لا ينتقدهم ولا يخالفهم ولا يعارضهم ولا يحرجهم. الصهاينة بهذا المعنى هم غرب استعماري صليبي ليس إلا، ولأن ذلك كذلك، فإن الصهيونية تفعل ما فعلته كل موجة من موجات الغزو

السابق، لقد بنت الصهيونية أسوارها وسياجاتها وأبراجها وأشهرت أسلحتها وطردت واقتلعت وصادرت واحتقرت، تماماً ككل مستعمر غازٍ غريب. إن النكبة – وخاصة أنها تتعلق بأرض فلسطين – تعني أنها حققت – ولو بشكل جزئي – ما فشلت به الحروب الصليبية ومن ثم الاستعمار الاوروبي التقليدي، وبقول قد يبدو فيه تجرؤ وتعجل، فإن النكبة هي هدية الغرب الاخيرة للمنطقة وشعوبها ودينها وتاريخها. إن قيام إسرائيل – بما في ذلك من استثارة للنبوؤات والمشاعر الدينية – يعني تحقيق الوعد والنبوءة ونهاية التاريخ. ولماذا لا تكون إسرائيل الجديدة إشارة على نهاية التاريخ؟!

النكبة تعني وقف التطور الطبيعي للشعب الفلسطيني ومن ثم تشويهه وتشريده، وتحويله من شعب كان يمكن أن يفعل المعجزات على أرضه، إلى شعب من المُلاحقين والجوع والمشبوهين في منافيهم القريبة والبعيدة، تحول الشعب الفلسطيني في معظمه إلى أفراد بلا هويات وبلا روابط، تحولوا فجأةً إلى لاجئين، إن وضع «لاجىء» وضع لا إنساني، ولا طبيعي، ولا حقيقي أيضاً. إن وضع «لاجىء» الذي أصبح وصفاً للفلسطيني يعني أن الفلسطينيين عليهم إن يطوروا مجتمعاً أخر في الهواء، وبين الفراغات، وبين الأسيجة وتحت الخيام، ومن ثم في مدن الاحزمة الفقيرة، وفي الإزدحام والفقر والظلم، ولم يكن من المستغرب أن يصطدم المخيم بما حوله من عواصم أو مدن. لا يمكن تطوير هوية ومجتمع في الفراغ، أو في الهواء، أو بين الاسيجة، ولا يمكن تطوير أو تطور مجتمع



تحت الحصار وتحت الملاحقة وتحت الشبهة ودائرتها. النكبة تعني أن الشعب الفلسطيني كان عليه أن يبدأ من الصفر، وأن يعيد تشكيل ذاته في أماكن متعددة، وكان عليه أن يرمم هذه الصورة من مختلف الامكنة، ذات الشعب الفلسطيني وهويته اصبحت – بسبب النكبة ليس الا – ذاتاً متعددة وهوية تتأثر بالزمان والمكان. إن الرابط الوحيد الآن بين كل الفلسطينيين هو فلسطين فقط، ذلك أن المنفى ليس مجرد نزهة وليس مجرد إقامة مؤقتة، المنفى له بصمات، وله ضغوط، وله قدرة على إعادة التشكيل في بعض الاحيان، بناء المنفى يعيد تشكيل فلسطين ذاتها. إن فلسطين التي يحلم بها فلسطينيو لبنان غير تلك التي يحلم بها فلسطينيو الضفة والقطاع إلى حدٍ كبير.

النكبة هي المنفى القاسي الفارم الذي يجعل من الوطن خيالاً أندلسياً كاملاً أو يقدمه بطريقة اخرى. المنفى ليس سهلاً، وليس مجرد مكان. إنه ثقافة.

والنكبة هي النضال، هي حركة التحرر الوطني، وهي القَدر الذي يتحمّله أبناء الشعب الفلسطيني في أن يقاتلوا الإحتلال وأن يطردوه وأن يعيدوا الأمور إلى نصابها. إن صراعاً وصل عامه المئة هذه الايام يعني أن الإحتلال ليس مجرد تغيير سلطات، وإنما هو الموت الزؤام.

النكبة أيضاً فضيحة العالم الأخلاقية وجرح الكون النازف، الدال على انتفاء العدالة الأرضية، وفشل ما يُسمّى بالمجتمع الدولي في حل القضية لمدة تزيد على ستين عاماً،



وعدم قدرة الليبرالية الغربية في حل الإشكال لأنها أي هذه الليبرالية – جزء من المشكلة وليس جزءاً من الحل، أو لأنها سبب المشكلة. بكلمة اخرى، إن النكبة بحد ذاتها دليل على مدى العطب الذي يلحق ويميز هذه الليبرالية، وفي مدخل آخر، فإن هذه الليبرالية لا يمكن لها أن تُسوق لنا أفكارها النيّرة او المتنّورة! فالليبرالية كاذبة ومخادعة ومنافقة، ولا يمكن أبداً اعتبار أن العالم يصل إلى ذروته الأخلاقية والسياسة معتمداً على هذه الليبرالية، وبهذا لم يخطىء فقط هيجل ولكن فوكوياما أيضاً، كلاهما اعتقد أن الليبرالية الغربية كفيلة بتحقيق السعادة والعدالة والاكتفاء، وكلاهما لم يرَ الجانب الأسود والقبيح لهذه الليبرالية. الأول رأى ذلك يتحقق في نابليون وبروسيا الذي أراد اِستعمار بلادنا والثاني رآها في الولايات المتحدة التي تريد أن تحكم العالم وتضبطه .

والنكبة هي أيضاً دليل عجز النظام العربي ودليل فشله ودليل انقسامه وتفتته، عندما تضيع فلسطين عادةً ما تكون البلاد العربية وجماهيرها في أسوأ الحالات، وعندما تُستعاد فلسطين عادةً ما يرافق ذلك تغييرات عميقة تجري على مستوى النخبة والقاعدة، هكذا تعلمنا الدروس الماضية. ضياع فلسطين وإعادتها عملية صعبة وطويلة ومريرة، تدخل فيها الأنظمة والشعوب في أتون من مجريات التاريخ يتم فيها خروج الخبث وبقاء ما ينفع الناس، ولهذا فإن النكبة التي حلت بالشعب الفلسطيني هي دليل الخراب والفشل وغياب العلم وانعدام الإيمان.



وفي هذا الصدد، يمكن القول أنه اذا كانت النكبة قد اقتلعت شعباً من أرضه مقابل استيطان شعب آخر فيها، فإن النكسة العام ١٩٦٧ وسقوط القدس كانت أشد وأنكى وأمرّ، إن سقوط القدس لا يعني سقوط غرناطه او سقوط بغداد او الاستيلاء على دمشق، سقوط القدس عادة ما يرمز إلى خراب وضياع ورخاوة وعدم أهلية مَنْ تضيع منهم البلاد. القدس ليست ككل المدن. إن احتلال الاماكن المقدسة يعني سقوط الكرامة والعزّة، إن تدنيس المقدس هو قمة الهزيمة، ولهذا نفهم لماذا شارك صلاح الدين الايوبي بنفسه في غسل المسجد الاقصى بماء الورد بعد احتلاله لمدة تزيد عن ثمانين عاماً. النكبة – في إحدى معانيها – ضعف الانظمة وخيانتها وعدم قدرتها على التنسيق أو المشاركة، ولكن النكسة – في احدى معانيها أيضاً – إن تلك الانظمة لم تفقد الشرعية فقط وإنما فقدت الرغبة في العمل او حتى الاستعداد له. النكسة كانت فضيحة مدوية اكثر دوياً وضجيجاً من النكبة. النكسة – وهي هزيمة مرّة بأبعاد خطيرة وقد رسمت المنطقة حتى هذه اللحظة – كانت بداية القبول بإسرائيل والتعامل معها والخضوع للأمر الواقع الذي فرضته. النكسة كانت فضيحة لأن الانظمة التي واجهتها ادّعت القومية والاشتراكية والجماهيرية والجاهزية، على عكس الأنظمة التي واجهت الصهيونية العام ١٩٤٨، كانت فضيحة أيضاً لأن الانظمة العربية العام ١٩٦٧ كانت تخدع بالقول أنها أتت لتعبر عن المطامح والآمال والتطلعات القومية والوحدوية والعروبية، على عكس الأنظمة عام ١٩٤٨

التي كانت مرتَهنة بأوامر المستعمِر العلني أو الخفي. كانت النكسة فضيحة لا تغتفر لأن انظمةَ عام ١٩٦٧ أتت إلى سدة الحكم على أساس من نكبة عام ١٩٤٨ ومن أجل تجاوزها وتصحيحها لكنها سقطت في ذات الهوة بطريقة اكثر قبحاً واكثر فضائحية.

ضياع القدس فيما سمي بالنكسة يشبه العقاب الجماعي الذي يحل بالأمة إن لم يكن العقاب كله والعذاب كله والمرارة كلها والهزيمة والذل والهوانٍ. وإن استعادة القدس تعني امتلاك كل ذلك دفعة واحدة، وأُبعد في القول لاقول إن استعادة القدس هي الشرط الوحيد من أجل أن تحيا الأمة حياة طبيعية تستطيع فيها أن تتنفس الهواء وتأكل الطعام . الحياة بدون القدس ناقصة ولا تستحق أن تكون الحياة بدون القدس كريهة وضيقة ولا سبيل إلى الاستمتاع بشيء.

إن ضياع القدس لا يعني ضياعها فقط، بل يعني أيضاً تهديد عمّان ودمشق والقاهرة ومكة، وضياع القدس لا يعني تشريد الشعب الفلسطيني أو قمعه او منعه من التطور، ولكنه أيضاً يعني تجويع الشعب العربي وحصاره ومنعه من التطور وامتلاك أسباب القوة، ذلك أن إسرائيل لا تمنع الشعب الفلسطيني حقوقه وتطوره، وإنما تقوم أيضاً بتجفيف أسباب القوة والمنعة في دول المحيط، حتى تقوى إسرائيل ويضعف من حولها، وحتى تنمو إسرائيل ويموت من حولها، اذن ضياع القدس لا يعني ضياع مدينة بل ضياع مستقبل ايضاً.



ولهذا فإن النكسة بمعناها وتجلياتها وآثارها ونتائجها اشد مضاضة من النكبة وأعمق مرارة وأشد وطأة.

إن النكبة ومن بعدها النكسة وما رافقهما من ضعف وفشل عربي، قد حولتا الشعب الفلسطيني إلى شعب مُشردٍ ومشتت، ومورست عليه عمليات التهميش والتغييب والنكران والتجريم وسحب الشرعيات والتعريفات عنه. إن هذه الآليات المختلفة التي مارسها الصديق قبل العدو حولت الشعب الفلسطيني عملياً إلى شعب فريد، وتنبع فرادته من قدرته على الصمود أمام كل هذه العمليات التي تشارك فيها قوى ذات جبروت وطغيان. تنبع فرادة هذا الشعب من قدرته على الثورة – بغض النظر الآن عمّا افضت إليه هذه الثورة – .

فرادة الشعب الفلسطيني في قدرته على تحويل الخيمة من خيمة لجوء إلى خيمة ثوار، وتحويل المنفى ليس إلى مكان للنجاح او النجاة بل إلى مكان للاستعداد والاحتشاد، وتحويل المأساة إلى حكاية لم تكتمل ولم تكتب نهايتها، وتحويل الهزيمة إلى مشارف الطريق المؤدية إلى النصر، وتحول الشعب الفلسطيني شاهداً – بعد أن كان شهيداً – على استحالة التعايش مع المشروع الصهيوني التوسعي والاحتلالي والإحلالي ايضاً.

وبهذا الصدد فإن المخيم – كوحدة إجتماعية واقتصادية وسياسية وبالتالي أصبحت ذات ملامح ثقافية – يتصّدر الكلام ويأخذ الكلام كله. فالمخيم كإفراز ونتيجة

للنكبة والنكسة أصبح هو المعوّل عليه، بمعنى، وقعت على أبنائه وأجياله المتعاقبة أن يتحملوا ويحملوا الرسالة وأن يجعلوا الشعلة مضاءة وعالية. ووقع المخيم – نتيجة لذلك، بين شفرات المُطلق وشفرات النسبي، ما بين متطلبات الثورة وفضائها وبين متطلبات الواقع وضيقه. المخيم الذي يقع في منطقة الرماد في كل شيء، جغرافياً – بكونه قريباً من المدينة ولكنه ليس منها – وثقافياً- باعتباره غريباً عن النسيج الإجتماعي وممنوعاً من الإندماج فيه – واقتصادياً – باعتبار أن موارده تأتي جاهزة وهو ممنوع من الانخراط في الدورة الإنتاجية – وسياسياً – باعتباره ممنوعاً من المشاركة والتمثيل والإنتخاب – كل ذلك جعل من المخيم ينقسم على ذاته، ويدخل في متاهات من التعريف وإعادة التعريف، الثورة كانت حلاً ولكنها ليست كل الحلول، وخاصة بعد انكفائها. المخيم – وهو وضع إستثنائي في تطور المجتمعات وسلوكها – منقسم على ذاته لأنه موّزع بين الإنتماءات وموزّع بين الولاءات وموزّع بين الأمكنة، ومرّة أخرى، المنفى ليس مكاناً وحسب، المنفى تجربة مهيظة وقاسية – وفي الوقت الذي يجبر فيه اللاجىء على تعريف نفسه بقوة وتطرف، فإنه أي المنفى – قادر على إجبار أو إقناع اللاجىء بفقدان هويته أو التخلي عنها طواعية. المنفى قاس وقاطع كحدّ السيف، والمخيم – باعتباره ليس أفراداً وإنما وحدة اجتماعية وسياسية خاصة – أُجبر الفلسطيني اللاجىء – كرهاً أو طواعية – على أن يحدد انتماءاته وخياراته. ولكن، وبذات الوقت، فإن القضية



الفلسطينية ليست قضيتنا فقط، وعليه، فإن المخيم يتعرض لكثير من الإغراءات أو الإجراءات أو الآليات التي تزيد من عدم قدرته على التحديد أو حتى الاختيار وخاصة بعد أن انكفأ المدّ الثوري والقومي ولا نقول انهزم.

المخيم الصامد، مخزون الثورة الإستراتيجي، حامل المشعل وشاهد المرحلة ومعلم الاجيال، ومعلم الايام ايضاً، الذي طور له لغة خاصة ومصطلحات خاصة، وقسّم فئاته وأعاد ربط ما انقطع، وسمّى الأشياء من جديد، وأرغم المدينة ومن ثم القريب والغريب على الإعتراف به والتعامل معه، هذا المخيم كان لزاماً عليه أن يصطدم بما حوله، شاء ام لم يشأ، ألثورة خيار صعب، وهي خيار مجنون ولا عقلاني ايضاً، الثورة وجدان، والثورة لا حسابات منطقية فيها – ومتى كانت كذلك يوماً؟ – وعندما اختار المخيم اصطدم بما حوله سريعاً، ومن هنا تعلم المخيم أن يكون متوجساً وشكاكاً ولا يثق، وإذا كان المخيم أرضية خصبة وطبيعية للمشاعر القوية ضد إسرائيل، فإنه طور أيضاً مشاعر متناقضة تجاه المحيط الذي يحيا فيه ألمخيم المعزول والممنوع والفقير والذي يحيا بمنطقة الرماد في كل شيء، طوّر عقلية خاصة، هي عقلية اللاجىء، وهي عقلية متوجّسة وشكاكة وقريبة من الإيمان المطلق دائماً، عقلية اللاجىء ليست فيها تسويات كثيرة، وهي أقل جدلاً وأقل رغبة في الكلام، هي عقلية تحيا على حافة القبر، ليس أسوأ من المنفى، وليس أسوأ من النكران، وليس أسوأ من الفقر، المخيم لم يعد يزعج إسرائيل فقط. المخيم قنبلة سياسية،



صحيح إلى حد كبير، ولكنه أيضاً قنبلة إجتماعية. إن أذكى الأنظمة التي تحاول السيطرة أو تذويب أو دمج المخيم او تحويله من نار تحرق إلى نار يُطبخ عليها لم تصل إلى نجاح أكيد ونهائي. مرة أخرى، المخيم لم يعد يزعج إسرائيل فقط، ومن هنا، فإن حل القضية الفلسطينية هي أولوية عربية، ليس فقط من منطلقات سياسية وأخلاقية وأمنية، وإنما من منطلقات إجتماعية صرفة. ولا أقصد هنا في الحديث أن يتحرك المخيم كله باتجاه معين، بل يكفي أن يكون هناك «عبسي» واحد ليدمّر المخيم أو ليثير المحيط ويدمّره. ولا أريد أن أسترسل في الأمثلة التي تؤكد الكلام إلى حدٍ كبير، أو على الاقل لا تنفيه.

يجب الاعتراف بقوة وصرامة أن المخيم مشكلة إجتماعية وصحية، وحتى لا نُفهم خطأً - بنيّة حسنة أو غير حسنة - فإن المخيم يجب أن يزول ويختفي عن الوجود لأن سكانه يجب - وهنا أكتب «يجب» بخط كبير وألفظها بملء الفم - أن يعودوا إلى ديارهم وأوطانهم التي هُجّروا منها، هذا هو واجب الناس الآن، وواجب الأجيال المقبلة أيضاً، ومن ينسى هذا الحق أو يفرط فيه فإنه عملياً يقبل أن يأتي الاثيوبي إلى فلسطين ويأخذ كامل الحقوق، فيما يحرمّ على امرأة فلسطينية أن تعود إلى وطنها لتعيش مع زوجها وأطفالها - إقرأوا قانون العودة الإسرائيلي للعام ١٩٥٢ و ١٩٧٢ والتعديلات التي أجريت عليه في الثمانينيات والتسعينيات لتروا مدى العنصرية ومدى الإستعداد القانوني لمنع العرب



الفلسطينيين من البقاء في أوطانهم -. ولكن وبعد تأكيد هذا الحق بما لا لبُس فيه، فان المخيم الذي يحيا اليومي والنسبي ومتطلبات الحياة اليومية من اكل وشرب وتعليم وصحة وعمل وتأمينات اجتماعية وصحية وأشكال سلوك متغيرة ومرتجلة، هذا المخيم الذي يعيش على المطلق ولكنه مضطر إلى التعامل مع النسبي، يتحول شيئاً فشيئاً – وخاصة بعد اتفاق أوسلو وتغيّر العالم ونجاح العولمة وانكفاء الثورات وتراجع الشعارات وخفوت الاصوات عن العودة أو مضامينها الحقيقية – فإن المخيم يتحول إلى مشكلة وعبء حقيقي، ليس على السلطة الوطنية وحسب، وإنما على الأنظمة التي تعيش فيها تلك المخيمات . لا يمكن حسم المخيم في نهاية الأمر. عقلية اللاجىء الذي يحيا على الأحلام ويضطر إلى البحث عن لقمة الخبز سيطور سلوكاً غير متوقع، هذا الكلام يعني ببساطة أنّ إسرائيل وغير إسرائيل مجبرون على حل القضية الفلسطينية، فالهزيمة حتى وان توالت لن تؤدي إلى خلق علاقة غرامية مع المحتل، والفقر والنكران لن يحول المجروحين إلى قديسين يدعون إلى محبة العدو الذي نقدم له الخد الايمن ليصفعه. ومهما بدا الكلام قاسياً ولكني أرجو أن يُفهم بواقعيته وأهدافه البعيدة، فأنا عملياً ألوّح بالقدرات التي رأينا بعضها وتلك التي لم نشاهد بعد، والتي يمكن للمخيم أن يجترحها ما لم تُحلّ القضية الفلسطينية، وبعيداً عن فذلكات الأكاديميين ورغبتهم في الوصف والتبويب والفهرسة ومن ثم الاستخلاصات، فإن المخيمات التي تصبح

عناوين للبلاد والثورة والحنين، تتحول بفعل الزمن إلى مواطنين من درجة أقل ويحصلون على حقوق وواجبات أقل، أي أن جُرح الطرد يضاف إليه جرح النكران والتهميش، وكأنّ حالة اللجوء هي حالة مشبوهة أو مدانة أصلاً، إن وضعاً كهذا - وإن استمر بشكل او بأخر - وإن تمّ استيعابه بشكل أو بآخر - وإنْ تمّ - تدجينه بشكل أو بآخر - لا يمكن له أن يستمر. إن بيت الصفيح ليس أفضل حالاً من خيمة ١٩٤٨، وإن معونات وكالة الغوث التي تتناقص سنة بعد سنة لن تكون بديلاً عن أحلام عريضة، وإن التطامن أو السكون أو الخضوع لأوامر المحيط وقوانينه لن تسود إلى الأبد، خاصة إذا توالت عمليات التنازل والتطبيع المجاني وقبول إسرائيل بالكامل دون إيجاد حل لأكثر من خمسة ملايين فلسطيني موزعين ما بين بيوت صفيحية أو صحارى بعيدة أو مجاهل لا يصل اليها البريد .

وكلما تقدمنا في الزمن، فإن مشكلة المخيم - متعددة المستويات ومعقدة التجليات - تزداد وتتفاقم، ليست فقط بسبب الآلية الخاصة بتطور المخيم وتعدد خياراته، وإنما أيضاً - وبذات الدرجة من القوة - بسبب أزمة او أزمات الإنظمة التي تعيش ضمن حدودها تلك المخيمات.

إنّ الأنظمة التي تعيش أزمات مختلفة تتعمق يوماً بعد يوم، وهي ازمات اقتصادية وسياسية، ولبنان تعطينا مثالاً مناسباً فيما يمكن للمقدمات والنتائج أن تكون . إن تجسد السلطة الوطنية في الضفة والقطاع - أو في الضفة فقط في

هذه الاثناء – لم يساعد حتى اللحظة في حل ضائقة المخيم، بل على العكس من ذلك، إذ أن تجسد السلطة الوطنية بدا وكأنه حل نهائي لموضوع المخيم، ومن هنا، ازدادت حدة الموضوع، وزاد ضغطه الشديد على الوعي والوجدان، فهل ينتظر سكان المخيمات منفى أبديا، أم تجنيسا أم توطينا أم تعويضا أم عودة مجزوءة. هذه الاسئلة لم تكن في الماضي، وهي الآن حاضرة بقوة، الأمر الذي يزيد من حدة وتطرف المسألة، ونحن هنا نتحدث عن عقلية اللاجىء – واللاجىء ليس مهاجرا ولا مغامرا ولا مستوطنا –، وقلنا إنها عقلية تطرّف أكثر منها عقلية مهادُنة، وعقلية تُبدي ما لا تُعلن، وإن تهديد المخيم بخيارات متعددة ومختلفة ضمن أزمات متلاحقة وضغوطات من جهات متعددة، كل ذلك يدفع الأمر إلى عنق الزجاجة. وإذا كانت النكبة ومن بعدها النكسة ومن بعدها الهزائم والأزمات ثم التفتيت و الانقسام، قد أضرّت بالمخيم، فضُرب وعّذب وحُوصر، فإننا الآن على أبواب مرحلة جديدة، تُقْبل فيها إسرائيل وتنشأ معها العلاقات، فيما يغرق المخيم بوحله أكثر فأكثر، إذن، فالأمر شديد ... شديد، وعلينا الانتباه!

نداء إلى أمّتنا
القدس لا تلوّح .. انها تغرق

أصعد من أسوار يبوس إلى الشمس على أسوار صلاح الدين، كأنني آتي الرحلة بعكس ما قام بها يوسف الأيوبي صاحب القلعة التي ساق خيوله منها إلى بيت المقدس، ليغسل قبابها بالرماحِ وماءِ الورد، لعلي أقول :هنا اللّجة فلترفع الملكةُ الثوبَ المرتبكَ عن الضوئين، وليفهق العطرُ من الشواهد المطمورة في غزة وسيناء والجولان، إلى القناة والمدن المقاتلة، رغم رطانة الهكسوس، الذين اندحروا بفعل الدّمِ والعبور العبقري، أولئك الذين كذّبوا على أرواحهم وأنكروا مصيرهم الطبيعي وجاؤوا للانتقام من الضحية.

وبيننا بحرٌّ مشترك، لكن الموج بعيدٌ لأن القواطيرَ وتماسيحَ الماء المالح، تمنعني من جرح صفحته المعدنية، بأصابع الزفاف ومزامير النخيل. والبحرُ اليافوي بعيدٌ عن بورسعيد أو اللاذقية، ولم يعد مأنوساً بقناديل اللهاث والعرق والاغاني النهارية المطهمة . وقبل ذلك وعلى تلال



رام الله وجبل النار أسمعني أصرخ. غير أن الدم الراهج مثل حبل النجوم على أسوارِ المدن العربية، إلى برتقالة السماء وثدي الأرض، أرى قبة الصخرة التي بناها أجدادنا الأمويون بأموال خراج مصر، كنانة العرب والمسلمين. هذه المدينة التي ترحب بنا، بجمالها السماوي فندخلها آمنين. ويطمئنني بأن الغريب الذي رحل كما جاء قد انصرف،وسنفتح الجرّة من جديد، ونفضّ فمها المغلق بقماشة الطين، ليسيل البرقُ على المصاطب، ونعلّق الصورةَ من جديد، ونرى كانونَ الجمر والدّلةَ وبساطَ الصوف ووجوهَ العائلة المرصوفة، ونسمعُ الريحَ ويأخذنا الفوحان. وعندما تَعدُّ أمُّ الدنيا لنا وليمة السحور، سيغار النهرُ لأن نجماً أبيضَ سقط في الطبق وذاب في شهد الطحين. وعندما يسأل الطفلُ أمَّهُ ما الذي يتلألأ في الأرض؟ ستقول: هذا القمرُ العاشق السابحُ في النهر. غير أن قمر فلسطين كابٍ وحزين، وكل صمت تحته هو حريةٌ للموت! لهذا لم تزل نافورة الدم والنار تفور في كل طريق . وأن كل اتفاق مع الإحتلال، يعطيهم المدينةَ من جديد ويعطينا الحسرةَ والهجرة والهباء. وأن سبارطة (إسرائيل) لم تعد من الحرب إلا إليها. وجنودُها لم يحلموا بالزنابق البيضاء، ولم يعلّموا أبناءَهم إلاّ كيف يقتلون، أو يلعبون بطوطم الكرة النووية، بعد أن يشربوا عبوات الدّم الحرام، التي عبّأوها من دم أطفال غزة وجنين. واذا عادوا من الحرب؛ فسنرى الكثيرَ من الفولاذ في وجوههم، لهذا لن ينبت بين أصابعهم إلا الزهرُ الفاحم

والحقد والعنصرية، ولن يتركوا مدننا إلاّ وهي بلا رؤوس، على إيقاع سلام جنائزي مريع .

ولعلكم ترون حرب الاستنزاف التي يقوم بها المستوطنون الجنود، كما تلاحظون أنهم يخلقون في فلسطين زمنين، الأول: زمن فلسطيني متخلّف هشّ مُحاصر بفعل الحواجز والأسوار والاستيطان والهدم والحرق والسجن والقتل والإذلال. والثاني: زمن اسرائيلي حداثي قوي متمكن جامح، بفعل كل آليات «الهايتك» العسكري الغربي، والمساندة الأمريكية المنحازة والحامية لدولة القتل، حتى صارت دولة فوق القانون. وها هو التيار الصهيوني العريض الذي أذاب اليسار الاسرائيلي، وصّعد اليمين والمتطرف فيه، حتى نقول لا فرق بين يمينهم ويسارهم، في دولة يركب اليسارُ فرسَ اليمين ويسبقه في كل ما هو عنصري وقمعي ورافض. كما تسعى دولة الاحتلال بالقمع والذبح والاستباحةِ العمياء، جعلنا ضحيةً إيجابية تقبل بكل ممارساتهم الفاشية. وإذا ما حاولنا الإعتراض أو المقاومة، فانهم يبالغون أكثر، ويضاعفون القمع، حتى يبرز فينا مَنْ يقول: اسحبوا الذرائع! أي كونوا خانعين. أي أنهم يريدوننا دون مقاومة مستسلمين، بعد أن يقضوا على خياراتنا الوطنية ويلوثونها، ثم يقدمون لنا خطتهم لنسلمهم حقوقنا، ونتنازل عنها، ونخيط أكفاننا بأيدينا. وإن رفضنا، يقدمون همُ البديلَ أو يواصلون القمع والموت.



أما تلك التي تسمى المفاوضات، فلا جدوى منها، لأنها بلا مرجعيات وبلا سقف زمني وبلا ضمانات دولية. بل إن المجتمع الغربي برمته يدعم اسرائيل ويعتبرها خندقه الثقافي المتقدم، واستطالته في منع أمُة العرب من الوحدة ثانية من جديد. أما نحن أمُة العرب فلا استراتيجية لدينا لتحرير القدس، ولا حضور للمدينة في خطابنا الإعلامي أو السياسي أو المنهاج المدرسي أو الجامعي إلا في المناسبات، ولا خطة شاملة لدعم المدينة المقدسة وتكريس الوجود العربي فيها. في اللحظة التي تقوم دولة الاحتلال ببناء عشرين نقطة استيطانية داخل الحيّ الإسلامي في البلدة القديمة في القدس، واقامة ستين كنيساً، سيكون أكبرها مكان المحكمة الشرعية على بعد أمتار من قبة الصخرة، وسيكون كنيساً أكبر من قبة الصخرة بخمسة أضعاف. وخصوصاً أن الاحتلال سيطر تماماً على الجدار الغربي للمسجد الاقصى، والمدرسة التنكزية، الواجهة الغربية العليا لساحات الحرم، وسيطروا تماماً على أسفل المسجد الأقصى وقبة الصخرة! فما الذي بقي؟ والوجود العربي في القدس سيكون حتى عام ٢٠٢٠، ١٢٪ فقط، فماذا نقول لأمتنا العربية التي قدمت وثيقة السلام في بيروت وترجو قاتلها للتطبيع معها ويرفض. بل يذبح مقدساتهم ويخلع جذورهم حتى العدم، ولا من ردّ سوى التوسل والتسوّل والضياع .

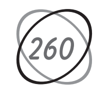
وأراني الآن مثل الشاعر الفلسطيني القديم القيسراني، الذي أمضى حياته يحث صلاح الدين على تحرير القدس وإنقاذ الأقصى. وأراني الشاعر الفلسطيني الغزيّ الذي بكى مثلي، لأنه لم يستطع الصلاة في الأقصى. فالفرنجة جعلوا منه أو من أجزائه اسطبلاً! هذا على الأقل ما ذكره اسامة بن منقذ في «اعتباره». أما على أيامي، فإن المحتل، حفر تحت أقصانا وظل يحفر طيلة أثنين وأربعين عاماً حتى بنى تحت الأقصى مدينة كاملة، ويؤسس ليجعل من الأقصى جزءاً من هيكل يبتلع اكثر من نصف مساحة البلدة القديمة، أي أن الوهم هنا يتحول إلى وقائع، والعنصرية تتحول إلى أحجار وأسوار وبوابات .

أناديكم من القدس التي تُحتل بأبشع صور الإحتلال، كجزء من مشهد احتلالي عنصري لم ولن يتكرر في التاريخ . ولن أضيف اليكم كثيراً حول أوضاعنا الفلسطينية، فلا المفاوضات، ولا العملية التسووية التي تهدف إلى إدارة الأزمة لا حلها، ولا انقسامنا المخجل والمربك والمخزي، حيث التقاتل على سلطة تحت الإحتلال في أحسن تعريفاتها، وحيث يتسابق الكل إلى أُنتزاع الإعتراف من ذات المحتل، وحيث هذا الأنقسام يضر بالقضية والشعب والمستقبل والصورة والنموذج والثورة، وحيث هجرة الكفاءات والعقول والخبرات، وحيث الحواجز تفصل بين المحافظات لتطور كل محافظة، من محافظات



ما تبقّى من الوطن، مصالح تتضارب فيما بينها . وحيث المحتل ينتزع الغور من قلب الوطن، وحيث يصادر الثروات والمحميات الطبيعية، وحيث يفتت الأرض بالطرق الإلتفافية والمستوطنات، التي استطاع أن يسوّق مفهومه حولها، بين استيطان شرعي واستيطان غير شرعي، وحيث يحاول أن يسوّق مفهومه الكارثي «التجميد مقابل التطبيع»، في أسوأ مقاربة يمكن لنا أن نقبلها .

أناديكم من القدس المحتلة، التي تحاول أطراف كثيرة، أقليمية ودولية أن تفرض علينا التعايش مع الإحتلال لا أنهاءه، ويُطْلَب منا أن نكرس الإحتلال من خلال ترتيبات وصياغات تتجنب الحديث أو الخوض في سبب المشكلة ومربعها الأول. منذ أثنين وأربعين عاماً، وكل الخطط وكل المبادرات وكل المشاريع أثبتت فشلها، لأنها لم تستطع ان تفرض على اسرائيل الإنسحاب من الأراضي المحتلة. غياب القوة وغياب التنسيق وغياب الوحدة وغياب الإستراتيجية الأمنية الواحدة وغياب المصلحة الواحدة، كل ذلك جعل من إسرائيل سيدة المنطقة. ألأجندات المتضاربة والمختلفة والأستقطابات والمغامرات والمقامرات وسوء العلاقة بين الحاكم والجماهير والأرتباك في إدارة السلطة والثروات والرؤى، كل ذلك جعل من عالمنا العربي يغرق في وطأة أو حمأة



تخلّف وضعف، جعله يرتمي في أحضان هذا الطرف أو ذاك .

لن أضيف اليكم كثيراً حول أوضاعنا العربية، فاحتلال بلادي وقُدسي وأقصاي، هو نتيجة هذا الضعف وهذا التخلف وهذا الأرتباك .

وإذا جرى الحديث عن ثقافة المقاومة، فهي تبدأ بالقراءة الصحيحة للواقع ومعطياته، فلا أوهام ولا أستيهام ولا خلط للأوراق ولا تداخل للخنادق، قراءة تعرف فيها الألوان وتسمى فيها المسميات، فلا استبدال للاصدقاء بالاعداء، ولا استعداء ولا استقواء، ولا تحالفات خارجية ولا أحلاف مريبة أو مشبوهة، ولا تطبيع باسم المدنية أو الأنسانية، فلا استدراج للانساني للاعداء ولا تقارب أومقاربة باسم المعرفة او التعرّف أو السياحة أو قبول أو رضى أو تعوّد أو اعتياد. المحتل غريب يرغب في أن يسوّد ويسوّد ويشوه ويدمّر ويستثمر.

ثقافة المقاومة هي استنهاض الحقيقي لمكامن الصمود والبقاء والرد والاستعداد، في المنهاج وفي الأنضباط وفي الأنتماء، في الشارع والمدرسة والبيت والمصنع والثكنة وبيت العبادة، هي الأنسجام مع التراث القومي والطيب والقوي، وهي الانسجام الاجتماعي والثقافي، فلا إثنيّات مقموعة ولا أقليّات محاصرة، وهي الحريات العامة وكرامة المواطن. المقاومة التي تقود إلى التحرير هي عملية كيماوية طويلة



ومعقدة، تبدأ بتنظيف الذات أولاً، من أجل الرد ثانياً . ثقافة المقاومة ثقافة خير وقوة وكرامة. فالمقاوم يمتشق حريته من أجل حرية الأخرين، هو إنساني لأنه ينحاز لكل ما هو إنساني. ثقافة المقاومة ضد المناورة والمداورة والتسويات وأنصاف الحلول وضد المريب والمشبوه والمخبوء . ثقافة المقاومة بالنسبة لنا جميعاً، هي أن نحصل على حقوقنا كاملة غير منقوصة، وهي أن نكون جزءاً من منظومة عالمية ترفض الاحتلال والاستلاب والاغتصاب . المقاومة أخيراً، مفهوم إنساني قبل أن تكون نضالاً بالسلاح، وهي مفهوم حضاري قبل أن تكون تحريضاً أو تجييشاً للجماهير . المقاومة هي قوة الرفض للذل، وهي معاكسة للذل وهي تضاد العبودية والأستعباد .

وأخيراً، وليس آخراً، إن ما ترونه من ضوء هو ليس ضوء الصباح .. بل إنه نور الحريق، الذي يدبّ في القدس .

والقدس لا تلوّح لكم .. إنها تغرق !

البُراق

توطئة

نظم اليهود تظاهرة في تل أبيب لمناسبة ما يسمى ذكرى تدمير الهيكل في ١٤ آب (أغسطس) ١٩٢٩، وأتبعوها في اليوم التالي بتظاهرة كبيرة في شوارع القدس لم يسبق لها مثيل، حتى وصلوا إلى قرب حائط البراق، وهناك رفعوا العلم الإسرائيلي، وأخذوا ينشدون النشيد الصهيوني "هاتكفا" (الأمل)، وشتموا المسلمين، وأطلقوا صيحات التحدي والاستفزاز، وقالوا "هكوتيل كوتلينو"، أي "الحائط حائطنا"، وطالبوا باستعادته، زاعمين أنه الجدار الباقي من هيكل سليمان.

وفي اليوم التالي، الذي كان ذكرى المولد النبوي الشريف، توجه أهالي القدس والقرى المحيطة بها على عادتهم لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وبعد الصلاة خرج المصلون في تظاهرة ضمت الآلاف من المسلمين، واتجهوا نحو حائط البراق، وحطموا منضدة لليهود كانت موضوعة على الرصيف، وأحرقوا بعض الأوراق التي تحتوي على نصوص الأدعية اليهودية الموضوعة في ثقوب الحائط.

وبعد عدة أيام تواترت الأخبار عن نية الصهيونيين شن هجوم على حائط البراق واحتلاله لتثبيت حقهم في ملكيته،



فتدفق مسلمو فلسطين إلى القدس لأداء صلاة الجمعة في ٢٣ من الشهر نفسه، وهم يحملون العصي والهراوات، وحين خرج المصلون وجدوا تجمعاً صهيونياً يتحداهم. فوقعت صدامات ومواجهات عنيفة بين الطرفين، وفتحت الشرطة البريطانية النار على الجمهور العربي، ودخلت المصفحات البريطانية القدس. وفي الأيام التالية اتسعت المواجهات الدامية فشملت مختلف المدن الفلسطينية، وكانت حصيلة ما عرف بـ "ثورة البراق" مقتل ١٣٣ يهودياً وجرح ٢٣٩ منهم، واستشهاد ١١٦ مسلماً وجرح ٢٣٢ شخصاً، وإلحاق أضرار كبيرة بالقرى والممتلكات.. وفي ١٧ حزيران من العام ١٩٣٠ أعدمت سلطات الانتداب البريطاني، في سجن عكا، قادة ثورة البراق: عطا الزير، ومحمد جمجوم، وفؤاد حجازي.

وأسفرت تلك التظاهرات عن إنشاء جمعية "حراسة المسجد الأقصى" التي انتشرت فروعها في معظم المدن الفلسطينية، واشترك المسيحيون مع قادة الحركة الوطنية للدفاع عن الأراضي الفلسطينية، فانتخبت في تلك الفترة اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي المسيحي التي قامت بعدة زيارات خارجية للدول العربية وبعض العواصم الأوروبية تحذر من الخطر المحدق بالمسجد الأقصى، ومحاولات اليهود بناء هيكل لهم على أنقاضه.

وعلى إثر الاضطرابات وثورة البراق، أرسلت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق عرفت باسم "لجنة شو"، نسبة إلى رئيسها. وبين جملة توصياته، أوصى شو بإرسال لجنة

دولية للتحقيق في موضوع حقوق العرب واليهود في البراق. وفي ١٥ أيار من العام ١٩٣٠، وافق مجلس عصبة الأمم على الأشخاص الذين تم ترشيحهم من قبل بريطانيا لعضوية اللجنة.

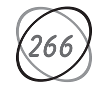
وصلت لجنة التحقيق الدولية إلى القدس في ١٩ حزيران من العام نفسه، وأقامت فيها شهراً بكامله، عقدت خلاله ٢٣ جلسة، اتبعت خلالها الأصول القضائية المعهودة في المحاكم البريطانية، واستمعت إلى ممثلي الطرفين العربي واليهودي، وإلى ٥٢ شاهداً (٣٠ استدعاهم العرب و٢٢ استدعاهم اليهود)، وأبرز الطرفان أثناء الجلسات ٦١ وثيقة (٢٦ وثيقة قدمها العرب و٣٥ وثيقة قدمها اليهود)، وكان دفاع الفريق العربي عن حقه في القدس يثير الإعجاب، واشترك في هذا الدفاع نخبة من رجالات البلاد من ذوي الاطلاع الواسع على الوضع الراهن للأماكن المقدسة.

كانت المشكلة الرئيسة التي واجهت اللجنة يومذاك تتمثل في محاولة الجماعات الصهيونية قلب "الوضع الراهن" بالنسبة للأماكن المقدسة، إذ ركزت جهودها منذ البداية على حائط البراق، متبعة أساليب تدريجية تصاعدية تنتهي بها إلى ادعاء حق اليهود في ملكية "حائط المبكى"، وقد تمثلت المرحلة الأولى من تلك الخطة بجلب اليهود الكراسي والمصابيح والستائر على غير عادتهم السابقة، ووضع هذه الأدوات أمام الحائط ليحدثوا سابقة تمكنهم من ادعاء حق ملكية التي يضعون عليها هذه الأدوات، ومن ثم ملكية الحائط.



ومن الوثائق التي قدمها الحاج أمين الحسيني إلى اللجنة الدولية وثيقة ترجع إلى زمن الحكومة المصرية، مؤرخة في ٢٤ رمضان ١٢٥٦ للهجرة (١٨٤٠ ميلادية)، موجهة من رئيس المجلس الاستشاري محمد شريف إلى أحمد آغا الدزدار، متسلم القدس، وتمنع اليهود من تبليط الرصيف المجاور لحائط، وتحذرهم من رفع أصواتهم وإظهار المقالات عنده، وقد شكك بعض اليهود في صحة هذه الوثيقة، بيد أن د. أسد رستم، أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأميركية، عضو المجمع العلمي اللبناني، درس هذه الوثيقة، مستخدماً خبرة غنية ومنهجية بحثية أصيلة، وأرسل نتيجة دراسته مزودة بالوثائق المقارنة إلى الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين العام ١٩٣٠، أكد له في نهايتها ما نصه: "بناء على ما نعرفه من نوع ورقها وقاعدة خطها وأسلوب إنشائها وطريقة تنميرها وتاريخها، وبناء على موافقة النصوص التاريخية لها ولاهتمام اليهود بأخربة الهيكل، نرانا مضطرين أن نرجح أصليتها ترجيحاً علمياً تاماً".

ويشكل حائط البراق الجزء الجنوبي من السور الغربي للحرم القدسي الشريف، بطول حوالي (٤٧ متراً، وارتفاع حوالي ١٧ متراً)، ولم يتخذه اليهود مكاناً للعبادة في أي وقت من الأوقات إلا بعد صدور وعد بلفور العام ١٩١٧.. ولم يكن هذا الحائط جزءاً من الهيكل اليهودي، ولكن التسامح الإسلامي هو الذي مكن اليهود من الوقوف أمامه، والبكاء على زواله، وزوال الدولة اليهودية قصيرة الأجل في العصور الغابرة.



وجاء في الموسوعة اليهودية، الصادرة العام ١٩١٧، أن الحائط الغربي أصبح جزءاً من التقاليد الدينية اليهودية حوالي العام ١٥٢٠ للميلاد، نتيجة للهجرة اليهودية من أسبانيا، وبعد الفتح العثماني العام ١٥١٧.

وفي عهد الانتداب البريطاني على فلسطين زادت زيارات اليهود لهذا الحائط، حتى شعر المسلمون بخطرهم، ووقعت ثورة البراق بتاريخ ١٩٢٩/٨/٢٣ م، والتي استشهد فيها العشرات من المسلمين، وقتل فيها عدد كبير من اليهود، واتسعت حتى شاركت فيها عدد من المدن الفلسطينية، وتمخضت الأحداث عن تشكيل لجنة دولية لتحديد حقوق المسلمين واليهود في حائط البراق، وكانت اللجنة برئاسة وزير خارجية السويد الاسبق "أليل لوفغرن"، وعضوية نائب رئيس محكمة العدل الدولية الأسبق السويسري " تشارلز بارد"، وبعد تحقيق قامت به هذه اللجنة واستماعها إلى وجهتي النظر العربية الإسلامية واليهودية، وضعت تقريراً في العام ١٩٣٠، قدمته إلى عصبة الامم المتحدة أبدت فيه حق المسلمين الذي لا شبهة فيه بملكية حائط البراق.

ومن اليهود الذين استمعت إليهم اللجنة الدولية الدكتور مردخاي الياش وديفيد يلين والحاخام موشي بلاو، وقدم الدكتور كورش ادلر وبعض كبار رجال اليهود في القدس مذكرة خطية تشرح وجهة النظر اليهودية بشأن حائط البراق. ومن العرب الذين استمعت إليهم اللجنة عوني عبد الهادي، وأحمد زكي باشا، ومحمد علي باشا، والشيخ إسماعيل الحافظ.



وأبرزوا للجنة وثائق ومستندات عدة، وقد كانت حجج اليهود أن حائط البراق هو من بقايا الهيكل، وأن "الكوتل معرافي" لا يمكن هدمه على الإطلاق، لأن الحضور الإلهي "شكينة" مستمر على الدوام، ولذلك فإن اليهود يرغبون في الصلاة أمام هذا الحائط، وينوحون على خراب الهيكل الذي كان في (٩ آب عبري). وقال اليهود إن استعمال أدوات كالمقاعد، وستار لفصل الرجال عن النساء، وخزانة تتضمن أسفار التوراة، وقناديل للطقوس، وطشت للغسيل، كان شائعاً عند الحائط، ومسموحاً به من الحكومة العثمانية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بمدة طويلة، ووفقاً لهذه الحجة يجب اعتبار هذه الحالة بأنها هي الحالة الراهنة. وقالوا إن المادة (١٥) من صك الانتداب البريطاني تقضي على الدولة المنتدبة بأن تضمن لليهود حرية العبادة عند الحائط حسب الطريقة المفروضة في شعائرهم وطقوسهم الدينية من دون أدنى تدخل من العرب، ويجب أن يمنع العرب من إزعاج اليهود أثناء صلواتهم، سواء بالمرور عند الحائط، أو بصوت الأذان، أو إقامة الذكر قرب الحائط. وعلى رغم كل هذه المطالب لم يدع اليهود ملكية الحائط، ولكنه من صنف الاملاك المقدسة التي لا يمكن الاتجار بها.

وقال اليهود إن قصة البراق يرجع عهدها إلى عدة أجيال بعد زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإن البراق لم يأت ذكره في القرآن، ولا توجد قدسية للرصيف الكائن أمام الحائط لكون النبي مر به ليلة الإسراء، لأنه لم يرد ذكره في الكتب المقدسة، وإن المسلمين لم يطلقوا اسم البراق على الحائط إلا

في السنوات الاخيرة، كما أن الدليل الرسمي للحرم القدسي الشريف الذي صدر عن المجلس الإسلامي العام ١٩٢٤ لم يشر إلى قدسية خاصة للحائط، وقالوا إن وقفية حارة المغاربة لا تؤثر في قيام اليهود بفروض العبادة عند الحائط.

وعلى أساس هذه الادعاءات طلب اليهود من اللجنة أن تعترف بأن حائط المبكى (كما سموه) مكان مقدس ليهود العالم قاطبة، وأن تقرر أن لليهود الحق في التوجه الى الحائط للصلاة وفقاً لطقوسهم الدينية دون ممانعة من أحد، واتخاذ كافة التدابير الضرورية لإخلاء أملاك وقف المغاربة على أن تقبل دائرة الأوقاف الإسلامية بدلاً منها مباني جديدة في موقع لائق في القدس.

أما ملخص تصريحات أحمد زكي باشا ومحمد علي باشا التي أدليا بها نيابة عن المسلمين، فهو أن الأمة الإسلامية أعلنت رسمياً، وفي كل الظروف، عدم اعترافها بالانتداب البريطاني على فلسطين. وعليه فهي لا تريد أن تتقيد بأي نظام مستمد من هذا الانتداب، ولا الإقرار بأية نتيجة ترجع إلى ما يسمى بـ "وطن قومي لليهود"، كما قرر المسلمون أن النزاع على ملكية أماكن العبادة، أو على حقوق مدعى بها على هذه الأماكن، يجب أن يرفع إلى الهيئة المختصة دون غيرها للفصل في أمر الوقف والأماكن الإسلامية المقدسة.

أما الحجج التي أبداها الفريق الإسلامي فكانت أن الرومان طردوا اليهود من فلسطين على إثر تدمير الإمبراطور "تيطس" الهيكل سنة ٧٠ للميلاد، وإزالة آثاره من قبل الامبراطور



"هدريان" سنة ١٣٥ للميلاد، ثم حكم البيزنطيون البلاد لغاية الفتح الإسلامي في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، واستمرت البلاد في حوزة المسلمين جيلاً بعد جيل باستثناء تسعين سنة حكم فيها الصليبيون، ولم تكن فلسطين في القرن السابع للميلاد عندما فتحها المسلمون يهودية، ولم يكن في القدس أي يهودي، ولم يتعرض المسلمون لليهود بأي أذى، بل أكرموهم، ولم يدّع اليهود في يوم أن لهم الحق في حائط البراق، وأن وعد بلفور العام ١٩١٧ هو السبب في وقوع الخلاف وتحريض اليهود على المطالبة بحق الصلاة أمام الحائط.

كما أن حائط البراق جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى المبارك والحرم القدسي الشريف، وليس فيه حجر واحد يعود إلى عهد الملك سليمان، والممر الكائن عند الحائط ليس طريقاً عاماً، بل أنشئ فقط لمرور سكان محلة المغاربة وغيرهم من المسلمين في ذهابهم إلى مسجد البراق، ومن ثم إلى الحرم الشريف، وقد كان السماح لليهود بالسلوك إلى الحائط من قبيل التسامح في المرسوم الصادر عن إبراهيم باشا في العام ١٨٤٠، وليس لأداء الصلوات.

وإن تطبيق الحالة الراهنة في الأماكن المقدسة ليست له علاقة بحائط البراق، لأن الحق في ملكيته او الانتفاع به عائد للمسلمين، وأما مدى التسامح فهو الذي يستطيع أصحاب البراق إبداءه، ولا يمكن أن يتجاوز الحدود التي يعينونها. وقد كان الكولونيل "سايمس" قد اعترف بهذا الأمر عندما مثّل الدولة المنتدبة أمام لجنة الانتداب الدائمة في دورتها التاسعة



لسنة ١٩٢٦ م، حيث قال: "جرت عادة اليهود بالتوجه إلى الحائط الغربي للبكاء على عظمة إسرائيل، على أن الموقع الذي يحصل في البكاء عائد للوقف الإسلامي.. وإذا كان يسمح لليهود بالتوجه إلى هذا المكان، فلا يترتب على ذلك أن الموقع هو ملكهم". وأشار المسلمون إلى أن الدولة المنتدبة في كتابها الأبيض الذي أصدرته في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩٢٨ اعترفت صراحة بأن الحائط الغربي والمنطقة المجاورة له ملك المسلمين خاصة.

وهكذا، فإن اليهود حاولوا العام ١٩٢٩ أن يؤيدوا مزاعمهم بالقوة، حتى ينفذوا نواياهم الحقيقية ووضع يدهم على جزء لا يتجزأ من الحرم الشريف، ورغم أنهم قالوا أمام اللجنة الدولية إنهم لا يدعون بحق الملكية في الحائط، فإنهم كانوا يرمون في الحقيقة إلى تحقيق هذه الغاية، ويؤكد ذلك ما جاء في دائرة المعارف البريطانية، والذي يقول: "إن من أكبر النتائج التي تلفت النظر والعناية التي تولدت من العداء نحو الساميين ظهور حركة اليقظة القومية في اليهود بمظهر سياسي، وهي الحركة التي عرفت بالصهيونية.. إن اليهود يتطلعون إلى افتداء اسرائيل، واجتماع الشعب اليهودي في فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية، وإعاة بناء الهيكل، وإقامة العرف الداودي في القدس ثانية، وعليه أمير من نسل داود".

وقد اختممت اللجنة الدولية تقريرها بالنتيجة التالية: "للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي ولهم الحق



العيني فيه، لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف، التي هي من أملاك الوقف الإسلامي. وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط، وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة، لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الإسلامي".

ولكن سلطات الاحتلال، وبعد حرب ١٩٦٧، واستيلائها على القدس القديمة، هدمت حارة المغاربة، واستولت على حائط البراق مباشرة، وأنشأت ساحة كبيرة مبلطة أمام الحائط لتستوعب اليهود الذين يحضرون للصلاة أمام الحائط، وفي هذه الساحة اليوم يوجد الباب الأول للنفق الشهير الذي حفرته سلطات الاحتلال موازياً للسور الغربي للحرم الشريف بطول حوالي ٤٨٨ متراً، وأوصلوه بقناة رومانية قديمة طولها ٨٠ متراً، وفتحوا باباً ثانياً في نهاية النفق عند مدرسة الروضة الإسلامية العام ١٩٩٦،ما أدى إلى انتفاضة النفق العام ١٩٩٦م.

حتى بين اليهود أنفسهم، تظهر أحياناً أصوات تخلع القدسية اليهودية عن "حائط المبكى"، وتعتبر أن لا علاقة للدين اليهودي بهذا الموقع، نظراً لعدم وجود أية صلة بينه وبين شريعة النبي موسى، وفي أيامنا هذه، لجأ بعض اليهود المستنيرين إلى التذكير بانتفاء تلك القدسية. وعلى سبيل المثال، نشرت تصريحات للحاخام يهورام مزور، أمين سر مجلس اليهودية التقدمية، في العدد الأول من مجلة "بتلم" اليهودية الصادرة عن هذا المجلس، صيف ١٩٩٩، تحت عنوان

"هل من المهم تأدية الصلاة على وجه التحديد عند حائط المبكى ؟!". ومما ذكره الحاخام مزور في هذا المقال أنه لا توجد قدسية لحائط المبكى في الديانة اليهودية، وأنه يرفض إقامة حفلات البلوغ أو أي شعائر أخرى هناك، وقال الحاخام مزور: "إننا نلتقي طوال ساعات اليوم أشخاصاً في هذا المكان يؤدون الصلاة في موقع هم الذين قدسوه". وأضاف: "إن ذلك يشبه عبادة الأوثان، وإن على مجلس الحاخامات التقدميين في إسرائيل اختيار موقع آخر لصلاة اليهود".

وكثيرة هي الدراسات التي نشرها متخصصون يهود، وتؤكد أن الرواية التوراتية تفتقر إلى أي دليل أثري، ومنها دراسات البروفسور اليهودي إسرائيل فنكلشتاين، رئيس قسم الآثار في جامعة تل أبيب، وزميله دافيد أو سسيشكين، اللذين أكدا أن بيت المقدس لم يشيد في عهد سليمان وإنما قبله بمائة عام، وأن هذا العهد غامض جداً، وليس هناك أي سند لما ورد في "العهد القديم" بشأنه.

***

وكان الإنجليز في أعقاب ثورة البراق وأحداث العام ١٩٢٩، شكلوا محكمة عسكرية، وذلك بدعوى محاكمة العرب واليهود الذين اشتركوا في الأحداث، وأصدرت حكماً بإعدام ثلاثة من الفلسطينيين هم: محمد جمجوم، فؤاد حجازي، وعطا الزير. وقال فؤاد حجازي لزائريه: "إذا كان إعدامنا نحن الثلاثة يزعزع شيئاً من كابوس الإنجليز عن الأمة العربية الكريمة، فليحل الإعدام في عشرات الألوف مثلنا كي يزول هذا الكابوس



عنا تماماً". وقد نفذ فيهم حكم الإعدام، ولم يكترث الإنجليز بالوساطات العربية لتخفيف حكم الإعدام.

وقال الشهيد فؤاد حجازي في وصيته التي كتبها بخط يده، وبعث بها إلى صحيفة اليرموك يوم ١٨/٦/١٩٣٠م:

"إذا كان لديَّ ما أقوله وأنا على أبواب الأبديّة فإنِّي أوجز القول قبل أن أقضي :

أخويَّ العزيزين يوسف وأحمد وفّقكما الله، رجائي إليكما أن تفعلا بما أُوصيكما به، أوصيكما بالتعاضد والمحبَّة الأخوية، والعمل بجدٍّ واجتهاد على مكافحة شقاء الدنيا لإحراز السّبق في مضمار هذه الحياة التي ستقضونها – إن شاء الله – بالعزّ والهناء.

ورجائي إليك يا يوسف.. يا حبيبي أن تلجأَ إلى الهدوء والسكينة، وأن لا تأتي بعمل تكون عاقبته وخيمة، عليك أن لا تتأثر لمصرع فؤاد، لأنَّ فؤاد لم يخلق إلاّ لهذه الساعة، وله الشرف الأعلى بأن يقضي في سبيل القضية العربية الفلسطينية.

عليك بطاعة والدتك وشقيقك يوسف.

أحمد.. السكينة السكينة، الهدوء الهدوء، ملابسي تحفظ شهراً ثم تُغسل، ممنوع قطعياً تنزيل أي طقم عليَّ سوى اللباس والفنيلّة والكفن داخل تابوت.

البكاء، الشخار، التصويت، هذا ممنوع قطعياً، لأنَّني لم أكن أرضاها في حياتي، خاصة تمزيق الثياب. يجب الزغردة

والغناء، واعلموا أن فؤاداً ليس بميت، بل هو عريس ليس إلاَّ.

يجب الاستعلام بواسطة الدلاّل عما إذا كان يوجد لأحد شيء بذمة فؤاد وسداده فوراً، وأعود فأوصيكم بطاعة الوالدة.

إنّ الضريح سيشيّد على نفقة لجنة الإسعاف العربية بالقدس، فلتعمل جنينة عند ضريحي بداربزين على الدّاير.

عليك أن ترفع رأسك بين أقرانك وأنت لا تدع للحزن سبيلاً إلى قلبك، وأن ترتدي دائماً الملابس الجديدة، وأن تحلق يومياً، عليك أن تذهب للنزهة والأفراح كعادتك، بل أكثر.

عليك بالسّهر على مستقبلك، فإذا كان الله قضى بذلك عَلَيَّ فما عليك أنت إلاّ الاطمئنان لحكمه تعالى، إنَّني من جهتي أسامح كل من شهد عَلَيّ، خاصةً سعيد العسكري، وغداً يوم الحشر سأقابله وأطلب حقِّي منه من الله سبحانه وتعالى، وعليك أن لا تضمر لأحد سوءاً، كما أوصيك بطاعة الوالدة واحترامها.

حبيبي أحمد :

أمّا أنت يا أحمد فعليك العناية بدروسك والاجتهاد فيها، وأن لا تجعل القلق يستولي عليك.

تأثَّرت من قولك حين زيارتك لي إنَّك ستأخذ بثأري، فهذا يا حبيبي لا يعنيك أنت لأنَّني لستُ بأخيك وحدك، بل أنا قد أصبحت أخا الأمة العربية، وابن الأمة جمعاء.

يا والدتي :

أُوصيك وصيَّة، والوصية – كما قيل – غالية:



أن لا تذهبي إلى قبري إلاَّ مرَّة في الأسبوع على الأكثر، ولا تجعلي عملك الوحيد الذهاب إلى المقبرة.

إنَّ يوم شنقي يجب أن يكون يوم سرور وابتهاج، وكذلك يجب إقامة الفرح والسرور في يوم ٦/١٧ من كل سنة، إنَّ هذا اليوم يجب أن يكون يوماً تاريخياً تُلقى فيه الخُطب، وتُنشد الأناشيد على ذكرى دمائنا المهراقة في سبيل فلسطين والقضية العربية".

***

وحكمت المحكمة على ٨٠٠ من العرب بالسجن سنوات مختلفة، أما اليهود فقد اكتفت بالحكم بإعدام يهودي واحد هو خانكين، وهو شرطي يهودي قتل عائلة عربية كاملة في بيتها في يافا، ولكن الإنجليز خففوا عنه حكم الإعدام إلى السجن لعشر سنوات، قضى بعضها في السجن، ثم أطلق سراحه.

وقام الفلسطينيون بالاحتجاج على حكم المحكمة الجائر والمتحيز لليهود، ثم قاموا بتشكيل لجان إغاثة لتقديم العون والمساعدة لعائلات الشهداء والجرحى.

وقد هز إعدام الشهداء الثلاثة على يد الإنجليز مشاعر الفلسطينيين، في الداخل والخارج، إلا أن الإنجليز لم يأبهوا وأعدموهم. وقال عز الدين القسام عقب إعدامهم في خطبة نارية: "يا أهل حيفا .. يا مسلمون، ألا تعرفون فؤاد حجازي؟ ألم يكن فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم إخوانكم؟ ألم يجلسوا معكم في دروس جامع الاستقلال؟ إنهم الآن على المشانق .. حكم عليهم الإنجليز بالإعدام من أجل اليهود".

وتابع القسام قائلاً: "أيها المؤمنون: أين نخوتكم؟ أين إيمانكم؟ وأين هي مروءتكم؟ ... إن الصليبية الغربية الإنجليزية، والصهيونية الفاجرة اليهودية، تريد ذبحكم كما ذبح الهنود الحمر في أميركا، تريد إبادتكم أيها المسلمون، حتى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويأخذوا القدس، ويستولوا على المدينة المنورة، ويحرقوا قبر الرسول .. إنهم يريدون اللعب بأمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وتحويلهن إلى خدم لهم وسبايا".

وكان تنفيذ حكم الإعدام بحق الشبان الثلاثة قد بدأ في الساعة الثامنة، حيث نفذ الحكم في الشهيد فؤاد حجازي، وفي التاسعة نفذ في الشهيد عطا الزير، وفي العاشرة نفذ في الشهيد محمد جمجوم، ووصف الشاعر إبراهيم طوقان هذه الساعات الثلاث في قصيدته "الثلاثاء الحمراء".

وإذا كان الحكم البريطاني قاسياً بحق المواطنين العرب، فإن أسباب اندلاع ثورة البراق لم تؤخذ بالحسبان، ما يؤكد أن اليهود قد أشعلوا فتيل المعركة تلك، وأن البريطانيين قد ساعدوهم من خلال إيقاع أحكام قاسية بحق المواطنين العرب، لمنعهم من الإقدام على التصدي لليهود، ومنع أنشطتهم العدائية مستقبلاً.

لقد كانت التظاهرة الضخمة لليهود في ١٤ آب ١٩٢٩ في تل أبيب، والتي جاءت لمناسبة ذكرى تدمير ما يسمى "هيكل سليمان" المزعوم، ثم نظموا تظاهرة ثانية في اليوم التالي في شوارع مدينة القدس، وتوجهوا نحو جدار الأقصى الغربي، جدار البراق أو "حائط المبكى" كما يحلو لليهود أن يسموه،



وهناك رفعوا العلم الإسرائيلي، وأنشدوا "الهتكفا" (النشيد القومي الصهيوني)، وهاتان التظاهرتان كانتا الشرارة التي أشعلت فتيل ثورة البراق، إذ تجمع المسلمون في اليوم التالي لهذه الحادثة، وكان يوم جمعة وذكرى المولد النبوي الشريف، في باحة المسجد الأقصى المبارك، وساروا بعد الصلاة في تظاهرة كبيرة حطموا خلالها منضدة لليهود على رصيف حائط البراق، وأحرقوا أوراق الصلوات اليهوية الموضوعة في ثقوب الحائط.

وتوالت الاشتباكات الدموية حتى حصل الانفجار يوم ٢٣ آب/ أغسطس، والذي يعرف تاريخياً بـ "ثورة البراق"، حيث هجم العرب بأعداد كبيرة على اليهود، وتدخل "البوليس" البريطاني بعنف، مستخدماً الأسلحة المختلفة، بما في ذلك الطائرات الحربية، وعاشت فلسطين للمرة الأولى أسبوعاً دموياً بين العرب واليهود، بعدما امتدت الاشتباكات إلى المدن الأخرى والقرى المختلفة.

وكانت نتيجة ذلك عشرات القتلى والجرحى من الجانبين، وسيطر القلق والتوتر على أجواء البلاد، وزاد من أجواء التوتر ذلك المنشور الذي أصدره المندوب السامي الثالث (تشانسلور) في أول أيلول، إثر عودته إلى البلاد من لندن، فهو لم يكن متسرعاً ومنحازاً لليهود فحسب، بل كاذب في افتراءاته على العرب، ووقح جداً في تعابيره.ونقتطع مما جاء في بيانه الذي أعلنه تعليقاً على تلك الأحداث: "عدت من المملكة المتحدة فوجدت بمزيد من الأسى أن البلاد في حالة اضطراب،



و أصبحت فريسة لأعمال العنف غير المشروعة، وقد راعني ما عملته من الأعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الأشرار سفاكي الدماء، عديمي الرأفة وأعمال القتل الوحشية التي ارتكبت بحق أفراد الشعب اليهودي، الذين خلوا من وسائل الدفاع بقطع النظر عن عمرهم، وعما إذا كانوا ذكوراً أو إناثاً، والتي صحبتها كما وقع في الخليل أعمال همجية لا توصف، وحرق للمزارع والمنازل في المدن وفي القرى، ونهب وتدمير الأملاك. إن هذه الجرائم أنزلت على فاعليها لعنات جميع الشعوب المتمدنة في أنحاء العالم قاطبة، فواجبي الأول أن أعيد النظام إلى نصابه في البلاد، و أوقع القصاص الصارم بأولئك الذين سوف يثبت عليهم أنهم ارتكبوا أعمال عنف وستتخذ جميع التدابير الضرورية لإنجاز هاتين الغايتين".

لقد كانت ثورة البراق مفصلاً مهماً في تاريخ النضال الفلسطيني، أثبتت عدوانية اليهود ونواياهم المبيتة لأرض فلسطين وشعبها، كما كانت وصمة دامغة في تاريخ القضاء البريطاني، ولعل التضحية بالذات في سبيل المجموع قد تجلت بأنصع صورها من خلال تسابق الشهداء الثلاثة إلى حبل المشنقة، حيث أراد كل واحد منهم أن يسبق زميليه إلى الحبل الرهيب، في محاولة لإيصال رسالة واضحة إلى الجلاد البريطاني، وقد وصلت الرسالة بالفعل.

وفي هذا الصدد، تصف فدوى طوقان اليوم الذي تم فيه تنفيذ حكم الإعدام بالقول: "وفي نهاية الثلاثاء السابع عشر من حزيران من عام ١٩٣٠، كان التكبير على المآذن وقرع



النواقيس في الكنائس يتجاوب صداها في أرجاء فلسطين قاطبة، إذ في ذلك النهار نفذ حكم الإعدام بالشهداء الثلاثة، في ثلاث ساعات متوالية، فكان أولهم فؤاد حجازي، و ثانيهم محمد جمجوم، و ثالثهم عطا الزير، وكان من المقرر رسمياً أن يكون الشهيد عطا الزير ثانيهم، ولكن جمجوم حطم قيده و زاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته".

وهنا يأخذ الشاعر ريشته ليصور هذا اليوم المخضب بالدماء، وليسجل في سفر الشعر الوطني الخالد مصارع أولئك الشهداء فتكون قصيدة إبراهيم طوقان "الثلاثاء الحمراء".

"وفي الحفلة السنوية لمدرسة النجاح بمدينة نابلس، ولم يكن قد مضى على تنفيذ حكم الإعدام سوى عشرة أيام، ألقى الشاعر إبراهيم طوقان قصيدته أمام الجمهور الذي كان ما يزال مستفزاً ومستثاراً، وعواطفه،لم تبرد بعد، وما أن ألقى الشاعر قصيدته حتى فقد السامعون كل رباطة جأش وكل هدوء، فكأنما خرج الناس من لحومهم ودمائهم، فما أن انتهى الشاعر من إلقاء قصيدته حتى كان بكاء الناس ونشيجهم يملأ ساحة المدرسة، ثم اندفعوا خارج المدرسة في تظاهرة شديدة وعارمة، حتى قيل يومها "لو أن إبراهيم ألقى قصيدته في بلد فيها يهود لوقع ما لا يحمد عقباه".

المتوكل طه



المتوكل طه

- مواليد قلقيلية / فلسطين 1958م.
- يحمل الدكتوراة في الأدب.
- اعتقلته سلطات الاحتلال الإسرائيلي غير مرّة وفرض عليه الاقامة الجبرية.
- انتخب رئيساً لاتحاد الكتّاب الفلسطينيين 1987م – 1995م.
- انتخب رئيساً للهيئة العامة لمجلس التعليم العالي الفلسطيني من 1992م – 1994م.
- شغل منصب وكيل وزارة الاعلام 1994م – 2006م.
- أسّس بيت الشِعر في فلسطين العام 1998م، مع عدد من المبدعين الفلسطينين وكان رئيسه.
- انتخب أميناً عاماً للاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين العام 2005م – شباط 2010م.
- يعمل في وزارة الخارجية برتبة سفير.
- صدر له أكثر من أربعين كتاباَ في الشعر والنقد والثقافة والفكر.

▪ شارك في مئات المؤتمرات والمهرجانات والفعاليات، ونشر الكثير من أعماله في الداخل والخارج، وترجمت عدد من أعماله إلى عدّة لغات.

▪ تم تكريمه في أكثر من مئه وخمسين مؤسسة فلسطينية، على مدار السنوات العشرين الماضية، كما تم تكريمه في عدد كبير من الدول العربية، ومن خلال عدد واسع من المؤسسات الثقافية والأدبية والمهرجانات، وصلت الى ثلاثين تكريماً.

♦ حصل على العديد من الجوائز الأدبية:

- جائزة «سوق عكاظ» مسابقة الشعر على مستوى فلسطين، جامعة بيرزيت 1983م.

- جائزة الشعر «جائزة الشاعر عبد الرحيم محمود» القدس 1990م.

- جائزة أفضل كتاب عن القدس عاصمة للثقافة العربية 2009م، عن كتاب «نصوص إيلياء ويبوس».

- جائزة أفضل قصيدة عن القدس (بالاشتراك) مؤسسة البابطين، بيت مال القدس – الرباط – المغرب 2009م.

- جائزة الحرية ، وزارة شؤون الأسرى والمحررين – فلسطين 2010م.

نصوص المدينة
القدس

المتوكل طه



عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة

الماصيون ـ رام الله / فلسطين

ص. ب: **1804**

هاتف: **+970- 2- 2952508**

+970- 2- 2984491

فاكس: **+970- 2- 2984492**

بريد الكتروني: ***sprgs@qou.edu***